# الفصل الرابع

## غزوات النبي

**غزوة بدر الكبرى** : كان الجهاد في العهد المكي، وهو يشكل اكثر من نصف دعوة الرسول ﷺ، يقتصر كما اشرنا اليه في اكثر من موضع اعلاه، على التبشير والانذار والصبر على الأذى:

﴿ فأصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم ﴾

(الاحقاق ٣٥)

ثم هاجر ﷺ الى يثرب، حيث بقي مايزيد على السنة* يؤسس للطور المقبل، طور الجهاد بكل اوجهه وأبعاده، التي منها قتال من يقف في طريق الدعوة ويعاديها: رتب ﷺ أمور المدينة، واستطلع ودرس احوال مقره الجديد، أقام العلاقات الداخلية والخارجية على أسس الأسلام لهذا المقر، أي بأختصار نظم السلطة الثورية الجديدة التي غيرت مجرى التاريخ الانساني حينذاك. وفي الثاني عشر من صفر من العام الثاني للهجرة* أتى الأذن بقتال المشركين:

* كان خروج الرسول من مكة في يوم الخميس اول يوم من ربيع الأول، وقدم المدينة لاثنتي عشر خلت منه لثلاث وخمسين سنة من مولده. وعندما قرر المسلمون جعل مبدأ التاريخ اعتبارا من يوم وصوله عليه السلام الى المدينة قدموا ميعاد الهجرة شهرين واياما ليتطابق مع بدء السنة الهلالية في الأول من محرم. ويكون لذلك الأذن بالقتال الذي وقع في شهر صفر من السنة الأولى للهجرة الواقعية قد وقع في السنة الثانية من التاريخ العمري (الهجرة المقدمة الآنفة الذكر). انظر كتب السيرة في هذا الشأن.

﴿ اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ﴾

(الحج ٣٩ و ٤٠)

وأتى تأكيد هذا الأمر بالآية التالية:

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين. وأقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلو كم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم. وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ﴾

(البقرة من ١٩٠ - ١٩٤)

ثم أتى الأمر بقتال المشركين كافة:

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾

(التوبة ٣٦)

﴿ أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم بحق الأسلام وحسابهم على الله ﴾

(حديث نبوي)

وبدأ التعرض لقريش بقطع مواصلات مكة وتعطيل تجارتها، وذلك بالتعرض لقوافلها في طريقها الى بلاد الشام المار بالضرورة قرب المدينة وكانت تلك القوافل تضم في العادة اشراف قريش وسراتها. وتكررت السرايا والغزوات طوال الاشهر الأولى من السنة الثانية للهجرة، الى ان بلغه ﷺ خروج قريش بعير كبيرة يقودها أبو سفيان بن حرب. وكان القرشيون قد وضعوا اموالا كثيرة في هذه القافلة حتى قيل انه «لم يبق بمكة قرشي أو قرشية لها مثقال فصاعدا الا بعثت به فيها». فخرج لها الرسول

في جمادى الأول من السنة الثانية للهجرة ومعه مائة وخمسون من المهاجرين. وقد حمل لواءه عمه حمزة. الا انه لما بلغ العشيرة، وهو مكان ببطن ينبع* وجد العير قد مضت في اتجاه الشام، فرجع الى المدينة ينتظر عودتها الى مكة. وفي خلال هذا الانتظار وقعت غزوة بدر الأولى حيث لاحق ﷺ شقيا اغار على سرح المدينة، وهو كرز بن جابر الفهري. كما ارسل سرية بقيادة عبد الله بن جحش تصدت في نخلة لعير لقريش آيبة من الشام الى مكة فأخذتها. وقد عابت قريش واليهود المسلمين بسبب هذه الغارة التي وقعت في الأشهر الحرم، كما عنف مسلمو المدينة اصحابها. ومما يفهم من اخبار هذه السرية ومن قوله ﷺ لأصحابها: «ما امرتكم بقتال في الأشهر الحرم»، انها كانت للاستطلاع وتنسم اخبار العير الكبيرة الأنفة الذكر وموعد عودتها من الشام. الا ان الأمر لم يطل باولئك الرجال الذين حاربوا في الأشهر الحرم، فقد اتت براءتهم بنزول الآية التالية:

**﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه أكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل ﴾**

(البقرة ٢١٧)

ووردت أخيراً الى يثرب اخبار اتجاه قافلة أبي سفيان في العودة الى مكة من بلاد الشام. فانتدب ﷺ الناس لها وقال:

«هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا اليها فلعل الله ان ينفلكموها» *

ونادى ﷺ بالناس بقوله: «من كان ظهره حاضراً فليركب معنا» ولم ينتظر من كان ظهره غائباً. وخرج في الثالث من رمضان بعد ان ولى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وكان معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا: منهم نحو مائتين واربعين من الانصار والباقون من المهاجرين. وكان معهم فرسان وسبعون بعيراً. ولم يخرج كثير من المسلمين في هذه الغزوة لظنهم بأنه ﷺ لن يلقى حربا. وفي اعتقادنا انه عليه السلام

---

* من حواشي الشيخين: الشرقاوي والغزي على كتاب «التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدى. المطبعة الازهرية بمصر ١٣٣٣ ٥ ج٢ ص ٧٨

* الأغاني للاصبهاني ج٤ ص ١٧ طبعة بولاق

كان يقصد الوصول الى العير بما أمكن من السرعة لأخذها قبل فواتها، كما حصل في المرة السابقة في غزوة العشيرة، وقبل ان ترد اليها النجدات من مكة لانقاذها. وفي حال تمكن المشركين من الوصول للنجدة، فان الوضع يدرس على الأرض عندئذ، لقبول المعركة أو عدمه، وهذا ماحصل بالفعل. ومما يدل على هذا الأمر ما ورد في الآية التالية:

**﴿ . . ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا ﴾**

(الانفال ٤٢)

ومعنى ذلك هو: انه لو تواعدتم انتم والنفير المشرك للقتال في بدر لاختلفتم في الميعاد ولكن جمعكم بغير ميعاد ليقضي الله أمراً كان مفعولا وهو تسجيل نصر كبير على الكفرة في تلك المناسبة**.

وكان ابو سفيان حينذاك لاينقطع عن تنسم اخبار المسلمين والأستفسار عن سلامة الطريق، فكان يتقدم القافلة ويسأل الركبان، فبلغه ان النبي ينتظر عودته ويوشك ان يخرج لها. فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وبعثه الى مكة ليستنفر قريشا. ويقول العباس رضي الله عنه ان ضمضم هذا اتى بطن الوادي في مكة واخذ يصرخ: «يامعشر قريش اللطيمة اللطيمة (أي العير العير: من عندنا) أموالكم مع ابي سفيان بن حرب قد عرض لها محمد في اصحابه، لأرى ان تدركوها، الغوث الغوث»*. فتجهز الناس هناك سراعا ولم يتخلف من اشرافهم وسراتهم أحد إلا أبو لهب بن عبد المطلب فقد بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة لقاء أربعة آلاف درهم كانت له بذمته. وخرج المشركون وكان عددهم تسعمائة وخمسون رجلا، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير. وكانت القينات تتقدمهم وهن يغنين بهجاء المسلمين، كما كان صاحب الأمر فيهم (ببذاءته وسلاطة لسانه) عمرو بن هشام ابو جهل.

وبلغه ﷺ مسير قريش وهو في الروحاء، وهو موضع على بعد ثلاثين أو أربعين ميلا جنوبي المدينة الغربي**. بلغه ان العير ستصل بدرا خلال يوم أو يومين.

---

** انظر تفسير الجلالين.

* الاغاني للاصبهاني ج٤ ص١٩

** نور اليقين للخضري ص١٢٥. وفي الاغاني ان هذا المكان هو بعد واد يدعى ذفران في اتجاه قرية بدر حنين.

فجمع قادة المسيرة لبحث الأمر، وكان هذا الاجتماع أول وأخطر مجلس أركان في الأسلام، وقد استهله ﷺ بقوله: «ايها الناس ان الله قد وعدني احدى الطائفتين انها لكم، العير أو النفير». فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال فنستعد.. وقد وردت الأشارة الى هذا الأمر بالآية التالية:

﴿ واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾

(الانفال ٧)

وقام كل من ابي بكر وعمر فقال واحسن. ثم قام المقداد بن عمرو، وهو من السابقين الاولين، وهاجر الهجرتين، فقال: «يارسول الله امض لما امرك الله فوالله لانقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون) ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون. فوالله لو سرت بنا الى برك الغماد (اي الحبشة) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه». فدعا له ﷺ بخير، ثم قال: اشيروا علي ايها الناس. وكان يريد الانصار، لأن في بيعة العقبة عهداً ربما فهم منه انه لاتجب عليهم مناصرته الا في مدينتهم يثرب وليس خارجها. وهذا العهد هو: «يارسول الله انا براء من ذمتك حتى تصل الى دارنا. فاذا وصلت اليها فانت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا». حينذاك قال سعد بن معاذ سيد الأوس: «كأنك تريدنا يارسول الله.». فأجابه: أجل. فقال سعد: «قد آمنا بك وصدقناك، واعطيناك عهودنا، فامض لما امرك الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك. وما نكره ان تكون تلقى العدو بنا غدا. انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقربه به عينك فسر على بركة الله». فأشرق وجهه عليه السلام وسر بذلك وقال كما رواه البخاري: «ابشروا والله لكأني انظر الى مصارع القوم»* . وأمر بالتقدم الى بدر.

وكان ﷺ لاينقطع عن استطلاع اخبار العدو طوال مسيرته الى بدر. فأرسل بسبس بن عمر الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن ابي الزغباء حليف بني النجار يتجسسان له الخبر عن ابي سفيان بن حرب وغيره في منطقة بدر. فمضيا حتى اناخا

* نور اليقين والاغاني الآنفي الذكر.

الى تل قريب من الماء هناك. ثم اخذا شنا يستقيان فيه، فسمعا جاريتين على الماء تقول الواحدة منهما للاخرى: «عندما تأتي العير غدا أو بعد غد فاعمل لهم ثم اقضيك الذي لك». وقد صادق على كلامها رجل كان حاضراً هناك اسمه مجدي بن عمرو الجهني. فعاد بسبس وعدي واخبرا النبي ﷺ بهذا الذي سمعاه وكان ذلك في الروحاء كما ذكرنا اعلاه. وقد اتى ابو سفيان الى بدر بعد انطلاقهما في العودة، والتقى بمجدي الآنف الذكر وسأله عما يجري في المنطقة، فقال له انه لم يشاهد سوى رجلين اناخا الى الكثيب واستقيا ثم انطلقا. فذهب ابو سفيان الى مناخهما وفت بعض ابعار بعيريهما فوجد فيه نوى تمر يثرب. فأدرك ان الرجلين طليعة للرسول عليه السلام. فعاد مسرعا الى العير الذي كان يتأخر عنه، وحاد به عن بدر الى جهة البحر. وعندما وصل ﷺ قرب بدر ذهب بنفسه يستطلع اخبار العدو مع احد اصحابه. وارسل نفيضة من علي بن ابي طالب والزبير بن العوام وسعد بن ابي وقاص مع نفر من اصحابه رضي الله عنهم لاستطلاع منطقة بدر، فصادفوا سقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وآخر لبني العاص السهميين. فاتوا بهما الى الرسول عليه السلام، وكان قائما يصلي. وعندما سألوهما عن انفسهما قالا نحن سقاة لقريش، فضربوهما لأنهم ظنوا انهما لأبي سفيان. فقال الغلامان نحن لأبي سفيان، أي للعير فتركوهما. وعندما اتم الرسول صلاته قال: «اذا صدقاكم ضربتوهما واذا كذباكم تركتوهما. صدقا والله انهما لقريش». ثم قال اخبراني عن قريش. قالا هم وراء هذا الكثيب. فقال لهما: كم هم. فقالا: لاندري. قال كم ينحرون كل يوم. قالا: يوما تسعا ويوما عشرا. قال ﷺ: «القوم مابين التسعمائة والألف». ثم سألهما عمن في النفير من اشراف قريش فعدداهم. فقال عليه السلام: «هذه مكة قد القت اليكم افلاذ كبدها».

وسارع الرسول ﷺ الى احتلال المكان الافضل والأشد ملاءمة من منطقة ماء بدر، وهي عبارة عن واد بين كثبان رملية متحجرة فيها عدد من الآبار (القُلُب) في العدوة الاقرب الى المدينة. وكان ذلك كما سبق ورأينا، بعد دراسة واستطلاعات مستفيضة للارض ولاحوال العدو، وبعد استشارة اهل الرأي الذين كان من ابرزهم في ذلك المقام الحباب بن المنذر الانصاري رضي الله عنه، الذي رأى ان يحجز المسلمون منطقة المياه بأجمعها عن المشركين. فيحتلون لهذا الغرض «ادنى ماء» من

المواقع المنتظرة لقريش، ويغورون ماعداه من الآبار التي ستقع وراء ظهورهم عندما يصطفون في مواجهة المشركين. ثم يبنون حوضا يملأ بالماء لشربهم، ويمنعونه عن المشركين الذين لن يكون لهم مورد سواه بعد تغوير الآبار الأخرى، بالاضافة الى سهولة الدفاع عنه لأنه يشكل موقعاً واحداً، (بدلا من عدة عندما كان هنالك عدد من الآبار المتفرقة). وقد تم هذا الأمر بالفعل، وكان فيه التعبئة المثلى للقتال في تلك الأرض ضد رتل اضناه التعب والعطش في اعقاب مسيرة طويلة من مكة الى بدر (بقيادة أحمق بذيء كابي جهل). ولنتمعن في قول الصحابي الحباب بن المنذر للرسول عليه السلام عندما اشار عليه بهذا المنزل: «.. انهض بالناس حتى تأتي ادنى ماء من القوم فتنزله ثم تغور ماسواه من القُلُب (الآبار) ثم تبني حوضا فتملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون*». فأجابه ﷺ: «لقد اشرت بالرأي». وبهذا بدأت المعركة «بالسباق» الى الماء ومنعه عن العدو، وكان للسابق فيه ميزة حاسمة على خصمه.

قلنا ان ابا سفيان اتى واستطلع طريقه عن بدر وعلم بنتيجة هذا الاستطلاع ان المسلمين قادمون ويوشك ان يفوته الوقت لانقاذ عيره، فعاد مسرعا اليه، وحاد به عن بدر الى جهة البحر ليأخذ طريق مكة من هناك. «ولما رأى انه احرز عيره ارسل الى قريش: انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم فقد نجاها الله فارجعوا. فقال ابو جهل والله لانرجع حتى نرد بدر (وكان بدر موسما من مواسم العرب تجتمع به لهم سوق كل عام) فنقيم عليه ثلاثا وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف لنا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ابدا»*. ووصلت قريش بالفعل الى بدر واقامت وراء الكثيب العقنقل (ذي الرمل المتحجر) كما افاد الغلامان ساقياها عندما استجوبهما النبي ﷺ، وقد مر معنا هذا اعلاه. اي ان قريشا اقامت خارج الوادي بعيدا عن مياه بدر برهة من الزمن، بدلالة احتياجهم الى سقاة ينقلون اليهم الماء الى مكان اقامتهم وراء الكثيب المذكور. يضاف الى هذا ان كتب السيرة تجمع على تغوير الآبار وبناء الحوض واقامة عريش النبي عليه السلام،

---

* الاغاني للاصفهاني ج٤ص٢٣

* الاغاني للاصفهاني ج٤ ص ٢٢

كل هذا تم ولما تدخل قريش الوادي . وشاهد ﷺ خروجهم من وراء الكثيب المذكور واتجاههم نحو الوادي ** ليأخذوا مواقعهم في العدوة القصوى منه (ضفته الأبعد من المدينة) وقال : «اللهم هذي قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم فاحنهم الغداة» . وهذه الصورة المؤيدة بمختلف الروايات لا يمكن الا ان تكون كذلك . اذ من غير المعقول ان تكون قريش حاضرة في الوادي واصحابه عليه السلام يغورون الآبار ويبنون الحوض الوحيد دون ان ينشب القتال بين الطرفين . كما ان القبض على ساقيها المذكورين آنفا كان اثناء وجودها وراء الكثيب المذكور، وقبل مجيء المسلمين الى آبار بدر واستيلائهم عليها . كل هذا يرينا البون الشاسع بين جدية المسلمين وحسن تدبيرهم واستعدادهم لاعدائهم المتفوقين عليهم تفوقاً ساحقاً بالعدد، وبين استهتار المشركين (سيما منهم زعيمهم ابو جهل الذي اعماه كفره وكبر ياؤه وحماقته عن رؤية مايدور حول جيشه فاهمل ضمان الماء له، مع انه وعده «بثلاثة أيام قصف وغناء . . . » .

والتقى الجمعان، المسلمون في العدوة الدنيا من وادي بدر، والمشركون في العدوة القصوى منه، وابو سفيان يجد هاربا بقافلته نحو مكة، كما تنبئنا الآية التالية :

**﴿ اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب اسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في المعياد ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولا ﴾**

(الانفال ٤٢)

«والركب اسفل منكم» جملة تعني : عير ابي سفيان السائر بمحاذاة البحر* .

وكانت خطة المسلمين كما يستنتج من مختلف الروايات مايلي :

اولاـ منع الماء عن المشركين . وقد اوكل الى عم النبي حمزة بن عبد المطلب، كما نرى فيما يلي، قيادة الدفاع عن الحوض الذي كان بين عريش الرسول عليه السلام وبين ميسرة المسلمين .

ثانياًـ وقوف المسلمين على الدفاع امام العدو الذي اجبر على الهجوم بمنعه

---

** انظر المرجع السابق حول هذه النقطة الهامة

* تفسير الجلالين .

من الماء وتعطيشه. وقد امر ﷺ اصحابه فقال لهم: «لاتحملوا حتى آمركم واناكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل، ولا تسلوا السيوف حتى يغشونكم». وذلك بعد ان عدل صفوفهم وحثهم على الثبات والصبر.

وبدأ الصدام بين الفريقين (في السابع عشر من رمضان السنة الثانية هجرية) بمحاولة (أو عدد من المحاولات) للوصول الى الحوض لاطفاء عطشهم.

تقول رواية الاصبهاني: «فلما نزل الناس اقبل نفر من قريش حتى ورد الحوض حوض رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ دعوهم. فما شرب منهم رجل يومئذ الا قتل الا ما كان من حكيم بن حزام فانه لم يقتل. نجا على فرس يقال له الوجيه واسلم بعد ذلك.» وظل حكيم هذا يتذكر هول الموقف طوال حياته ويحلف بقوله: «والذي نجاني من يوم بدر...». وكان من جملة من حاول الوصول الى الحوض الاسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلا شرسا سيىء الخلق فقال اعاهد الله لأشربن من حوضهم او لأهدمنه او لأموتن دونه. ولعله كان يقود الفئة الآنفة الذكر، او فئة اخرى أوكل اليها الاستيلاء على الحوض. ولعله كان الوحيد من فئته الذي وصل الى الحوض، اذ تقول الرواية ان حمزة رضي الله عنه اجهز عليه عند الحوض. اذ من غير المعقول ان يأتي رجل بمفرده للقيام بمهاجمة المسلمين واختراق صفوفهم للوصول الى ذلك الغرض عنوة. وللاهمية القصوى التي للحوض في خطة المسلمين نجد انه لابد من ان يكون عم الرسول عليه السلام حمزة هو قائد من كانوا يدافعون عن موقع الحوض ويردون المشركين عنه. وخروجه للمبارزة في أول المعركة (كما جرت العادة في تلك الأيام) كان مهمة مؤقتة لاتمنع من اضطلاعه بالمهمة الأساسية وهي قيادة حماية الحوض.

وأستخدم المشركون خيالتهم للاحاطة بمسيرة المسلمين اولاختراقها، للوصول الى الحوض. وقد مر معنا اعلاه انه ﷺ أمر اصحابه بفتح الطريق لهم للاطاحة بهم والقضاء عليهم. ونستخلص هذا الامر من خبر نجاة حكيم بن حزام الآنف الذكر على فرسه عندما حوصرت فئته المهاجمة للحوض وقضي عليها. كما ان عمير بن وهب الجمحي استجال بفرسه حول مواقع المسلمين، قبل الاشتباك ليستطلع مواقعهم ويقدر عددهم، فعاد ينصح قريش بتجنب المعركة ويصور لها منعة المسلمين بنبالها وسيوفها فقال: «يامعشر قريش الولايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل

الموت الناقع قوم ليس لهم منعة الا سيوفهم والله ماأرى ان يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم فاذا اصابوا منكم اعدادهم فما خير العيش بعد ذلك». وهذا يدل على ان المسلمين كانوا يشكلون «جزيرة» مقاومة، فلم يبددوا قواهم في احتلال مراكز غير مفيدة لدفاعهم، بل اقتصروا على النقاط الحيوية التي كان منها مابقي من مياه بدر بعد تغوير آبارها. فكانوا في تشكيلتهم ومواقعهم كالقلعة التي تحطمت عليها، وردت بنبالها، كل محاولات المشركين لزحزحتها او الاخلال بنظامها. ثم بدأ زحف المشركين الاخير، وكان المسلمون ينضحونهم بنبالهم كما امرهم قائدهم ﷺ، الذي كان بينهم يراقب تقدم العدو. وعندما دنا الفريقان بعضهم من بعض الى المسافة الحرجة، اخذ عليه السلام «حفنة من الحصباء ورماها في اتجاه المهاجمين... ثم لجنده: شدوا... فانقضوا عليهم انقضاض المؤمنين المتشوقين الى الشهادة في سبيل الله، وكان من حدائهم مثلا (على نقيض الغناء البذيء لقينات ابي جهل):

ركضاً الى الله بغير زاد  الا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد  وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والرشاد*

وما كانت الا ساعة حتى هزم المشركون وولو الأدبار. وكانت وقعة مهولة فيهم، تأثر بمشاهدها حتى اقرب اصحاب الرسول. فقد ظهر التأثر على وجه سعد بن معاذ سيد الأوس، وكان من حرس النبي يرقب معه ﷺ قرب العريش تطور المعركة. فقال عليه السلام: كأنك كرهت مايصنع الناس؟ قال: أجل، والله يارسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله عزوجل بأهل الشرك فكان الاثخان في القتل اعجب الي من استبقاء الرجال... وقتل من المشركين نحو السبعين وكان بينهم كبار اعداء الرسول: أبو جهل، وأمية بن خلف وابنه علي اللذان عذبا بلال أشد العذاب في مكة، وحنظلة بن ابي سفيان، ونوفل بن خويلد، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وغيرهم. وكان فتيان صغيران من الانصار قد اثخنا ابا جهل* ، وقد سعيا الى ذلك لما كانا يسمعانه من شدة اذاه للنبي عليه السلام واجهز عليه عبد الله بن مسعود. وكان عدد

---

* المرجع السابق ص ٢٧ .
* عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما العفراء وقد استشهدا في المعركة.

الأسرى سبعين أسيراً كان من بينهم العباس عم النبي .

حطمت بدر جاهلية وعنجهية الوثنية أمام الجماهير العربية بتحطيم جاهلية وعنجهية قريش المتمثلتين بأصنام الكعبة والزعامات الحمقاء التافهة التي كانت تقوم بأمثال عمرو بن هشام وابي لهب وغيرهما ممن كانت قيمته لاتعدو اسباب القوة المادية التي وضعها نظام القهر حينذاك في يده فبغى بها ونشر الفساد . فكانت هزيمة تلك القيادات في بدر على يد فئة قليلة صالحة :

**﴿ ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فأتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾**

(آل عمران ١٢٣)

واذلة تعني قلة ضعافاً **، نقول كانت هزيمة تلك النماذج ، انذارا لكل امثالها في الجزيرة العربية بان يومها قد اقترب . وقضت هذه المعركة على رؤوس معارضي الدعوة الاسلامية في مكة وازاحتهم من طريقها ، في الوقت الذي ابرزت فيه دعوة التوحيد والانسانية هذه «التي كان قد كافح من أجلها ﷺ كل تلك السنين الطويلة قبل بدر، وصبر امر الصبر هوواصحابه على اذى اعدائها» نقول في الوقت الذي ابرزت فيه بدر دعوة الاسلام كقوة يحسب حسابها اعداؤ ها ، وكبشرى للمستضعفين في الأرض بالخلاص ، وللشرفاء الواعين بعهد جديد مشرق .

ان المعارك الحربية ليست بحجمها فقط ، وانما ايضا بظروفها ، ونسبة القوى المتصارعة فيها ، ومهارة القيادات وكل المنفذين على مختلف المستويات لمهامها في كسبها ، وعلى الأخص بالنتائج التي تتمخض عنها . ففي الحرب العالمية الأخيرة مثلا جرت معارك كبرى طاحنة برز فيها قادة كبار اكفاء ،الا انه كان فيها معركتان استلفتتا الانتباه ، ليس باتساع ساحتيهما وضخامة القوى المشتركة فيهما ، اذ انهما كانتا من حيث الحجم صغيرتين نسبياً ، وانما بالاسلوب الجديد للقتال الذي ظهر لأول مرة ، وبالمهارة في ادارتهما وانجاز مهامهما من قبل مختلف مستويات المنفذين . وكانت اولاهما معركة استيلاء الالمان على النروج بالاعتماد اساسيا لأول مرة في التاريخ على نقل القوات جواً ، ثم تعزيز هذا بالنقل بحراً بحماية الطيران وعلى الرغم من الاسطول

---

** تفسير الجلالين

البر يطاني سيد البحار آنذاك. وثانيهما استيلاء الالمان ايضاً على جزيرة كريت اليونانية بظروف مشابهة للسابقة. ومع ذلك فان هاتين المعركتين لم تتركا أى اثر في مجرى التاريخ العام الانساني، ولم تفيدا المنتصرين أية فائدة، وان كانتا بلغتا حد الاتقان المطلق في التنفيذ من قبل الالمان الذين هزموا في النهاية. أما بدر فانها كانت قبل كل شيء تمثل الحجر الأول والأساسي في وجه من أوجه عملية تغيير العالم وهو وجه الكفاح المسلح. ولا ادل على خطورتها من ذلك الاهتمام الكبير الذي اخذ بمجامع تفكيره وقلبه ﷺ الذي استقبل الكعبة قبيل الاشتباك الحاسم وجعل يدعو ويقول: «اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الأسلام لاتعبد في الأرض». ويقول الخبر انه ﷺ لم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، فأخذه ابوبكر ووضعه عليه، ثم التزمه من ورائه وقال في النهاية: «كفاك يانبي الله، بأبي انت وأمي، مناشدتك لربك، سينجز لك ماوعدك». أما الاتقان في بدر فقد بلغ حد الاعجاز: باساس المناورة بتركيز الماء في صحراء في موقع واحد هو الحوض، وذلك بكل سرعة وحزم وبدون اضاعة ثانية واحدة يستفيد منها العدو لتعطيل هذا الامر، ثم حجز الماء عن هذا العدو الذي يجبر بهذا على اتخاذ خطة الهجوم على كتلة من الرماة المهرة في أرض مكشوفة، وقد قال عمير بن وهب الجمحي الآنف الذكر عن هذه الكتلة: «.. نواضح يثرب تحمل الموت الناقع..». فاذا مابلغت المعركة الطور المناسب، وهو انهاك العدو المتفوق بالعدد بنسبة ثلاثة الى واحد، بالاضافة الى خيوله وجماله، نقول حتى اذا مابلغت المعركة هذا الطور، الانقضاض عليه كتلة بالسيوف والقضاء عليه. وكانت المهام فيها تسير سير أجهزة الساعة بين مختلف المنفذين.

**غزوة احد**: كان بالامكان ان تتقدم معركة الخندق لتكون مكان احد لولا حماس شباب المسلمين الذين كانوا يتشوقون للقاء المشركين، لاسيما بعد الانتصار الكبير في بدر الذي طارت شهرته في الآفاق واصبح اسطورة يرددها الناس وتلهب خيالهم. فألحوا على النبي ﷺ، هم ومن جروه معهم بحماسهم من المسلمين، بالخروج للقاء المشركين في الساحة المكشوفة خارج المدينة. ومع ان رأيه عليه السلام، مع شيوخ المهاجرين والانصار، البقاء في المدينة، اذ قال لأصحابه (عندما بلغه من عمه العباس رضي الله عنه ومن مصادر اخباره الأخرى خروج المشركين واتجاههم

نحو المدينة) : «ان رأيتم ان تقيموا في يثرب وتدعوهم حيث نزلوا فان هم اقاموا اقاموا بشر مقام، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم»، نقول ومع ان هذا ماكان يراه النبي فانه عليه السلام استجاب لرأي من طلب منازلة المشركين خارج المدينة للسببين التاليين :

الأول ـ : لأن انصار الخروج كانوا يشكلون الأكثرية من حيث العدد، كما ان اعباء القتال تقع على عاتقهم لقوتهم الجسمية وجلدهم.

الثاني : ـ لأنه وان كان اتخاذ خطة الدفاع في يثرب يضمن النصر للمسلمين والهلاك للمشركين لمناعة موقع المدينة، وكان هجوم القرشيين عليها يدفع جميع اهلها بمن فيهم المنافقين للدفاع عن مدينتهم وبيوتهم ضد الاغراب المهاجمين ورد اذاهم، الا ان الخروج للقاء المشركين في موقع مناسب كأحد يوفر ايضاً للمسلمين فرصة شبيهة بتلك التي اتيحت لهم في بدر لألحاق هزيمة بالمشركين. يضاف الى هذا ان القتال خارج يثرب يجنب هذه المدينة ماينتج عن المعارك الحربية فيها من خراب وقتل للضعفاء كالنساء والاطفال والشيوخ.

لذلك كان قول المنافق عبد الله بن ابي عندما انسحب بجماعته في منتصف المسيرة الى احد : «عصاني واطاع الولدان فعلام نقتل انفسنا»، مجرد حجة منافق يريد التهرب من المشاركة في القتال. ونعتقد ان اتفاق رأيه مع ماكان يراه النبي وشيوخ المهاجرين والانصار من وجوب جر المشركين الى القتال في طرقات المدينة وبين بيوتها، قبل تغلب رأي من كان يرى الخروج اليهم لقتالهم في ساحة مكشوفة، كان مجرد نفاق. لأن ذلك الاحتمال لو وقع لكان الوحيد الذي يجبره على القتال للدفاع عن بيته ضد مهاجمين على مدينة لايميزون فيها داراً من اخرى في عد ونهم وقتلهم ونهبهم. وقد تم له هذا الأمر كما رأينا، فقد انسحب بجماعته الذين كانوا يعدون ثلاثمائة، أي ما يقارب ثلث الجيش. وكاد هذا الفعل ان يسبب فتنة بين المسلمين تؤدي بهم الى كارثة تفوق ما سببته خسارتهم معركة أحد :

**﴿واذ غدوت من اهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم. اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** (آل عمران ١٢١ و ١٢٢)

(اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا) يقصد بهما بنو سلمة وبنو حارثة (جناحا العسكر)، عندما تأثروا بأنسحاب عبد الله بن أبي، وهموا بالرجوع، فثبتهم الله ولم ينصرفوا*. وقد انقسم المسلمون الى فريقين: فريق منهم يقول نقاتل جماعة المنافق ابن أبي وآخر يقول نتركهم:

**﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا اتريدون ان تهدوا من اضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾**

(النساء ٨٧)

ومر المسلمون بتجربة قاسية بمعركة احد. استشهد منهم فيها عدد من ابطالهم بلغ السبعين. وكان بين من استشهد حمزة بن عبد المطلب القائد الكبير الذي كان لقبه، لقوته الخارقة وشجاعته وحسن تدبيره: «اسد الله». ولاقوا بعد المعركة شماتة المنافقين الذين استطاعوا ان يؤثروا بدسائسهم وفسادهم في بعض المؤمنين:

**﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لأخوانهم اذا ضربوا في الأرض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير﴾**

(آل عمران ١٥٦)

بل ان بعض المؤمنين قد بلغ بهم الاستياء والتذمر الى درجة اصبحوا معها

**﴿.. يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل ان الأمر كله لله يخفون في انفسهم ما لايبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبر ز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾**

(آل عمران ١٥٤)

---

* تفسير الجلالين

وكان موقف الرسول ﷺ في ذلك الظرف العصيب، في ثباته الخارق في ميدان المعركة، هو واربعة عشر من صحابته تجاه الألوف من المشركين، ومواجهته ظروف ما بعد المعركة في المدينة، هذا الموقف يمثل قمة من قمم المقاومة وعدم التسليم والصبر على الجهاد، يمثل قمة من قمم الصدق والايمان.

ان موقعة احد ما مست من الناحية العسكرية الا الرماة الذين لم ينفذوا تعليمات الرسول عليه السلام بالثبات على تليل عَيْنَيْنِ في سفوح كتلة جبال احد لحماية ميسرة المسلمين ومؤخراتهم من التفاف خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حول التليل المذكور. يقول الجنرال اكرم، الاستاذ في كلية الاركان الباكستانية، في بحثه القيم بعنوان: «سيف الله خالد بن الوليد»: «... سبق ان اخذنا بعين الاعتبار تراتيب القتال التي تبناها النبي، وكذلك الأسباب العسكرية السليمة الكامنة وراء نشره لقواته. وينبغي ان نلاحظ ايضاً ان النبي في اختياره ميدان المعركة قد ترك المدينة مفتوحة لهجوم القرشيين. وكانت المدينة قاعدة للمسلمين، لكن الطريق المؤدي الى تلك القاعدة والذي يمر جنوب موقع المسلمين، كان مفتوحاً لأبي سفيان. فلو ان ابا سفيان قرر التحرك الى المدينة، فان المسلمين لن يكونوا في طريق تقدمه. في هذا القرار توقع النبي بشكل صحيح بأن ابا سفيان لن يجرؤ على التحرك الى المدينة، لأنه لو فعل ذلك لعرض مجنبته ومؤخرته للهجوم من قبل المسلمين. وهذا ما حصل تماماً فأبو سفيان لم يتحرك الى المدينة خوفاً من المسلمين الذين كانوا على جانب الطريق. وكان هذا مثالاً نموذجياً تكرر مرارا عديدة في التاريخ العسكري، لقوة تدافع عن قاعدتها ليس بالتمركز وخوض معركة جبهية، بل بتهديد أي تحرك معاد نحو تلك القاعدة من الجنب* «ونضيف نحن ونقول: ان المدينة ما كانت قاعدة خالية من المقاتلين، فلو ان ابا سفيان ترك جيش النبي واتجه اليها، لكان اوقع جيشه في مأزق لا يخرج منه ابدا، لكان حصر بين مقاومة المدينة وجيش النبي في أرض وعرة قليلة المسالك تحيط بها الحرات من كل جهاتها. ومما لاريب فيه ان هذا الأمر كان من جملة الاحتمالات في تقديره عليه السلام.

كانت الثورة الاسلامية الكبرى، ككل الثورات، معرضة للنكسات اثناء

---

* ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ص ٦٧.

صعـودهـا وكـانت معركة احد واحدة منها. ذلك لأن خصوم الثورات ليسوا بالهينين. ولابـد من الصـبر على مجالـدتهم. الا ان النكسات في الثورات الظافرة، ومنها نكسة الدعوة الاسلامية في احد، ما هي الا من باب التراجع الموقت الذي يكشف العديد من النواقص في كل مجالات الاعداد للكفاح، ويعطي الكثير من العبر، فتعود الثورة بعدها وقد تعلمت درساً جديداً أشد مما كانت عليه.

ان معـركـة احـد لم تكن حاسمة من الناحية التاريخية لطرفي القتال، وان كانت تمثـل بالنسبـة الى المسلمـين احد اروع المواقف الجهادية. وأخبارها في كتب السيرة، لاسيـما منهـا الـدراسـة العلميـة القيمة المشار اليها اعلاه للجنرال اكرم، الذي لم يوفر جهـداً في سبيـل اعـادة رسم صورة هذه المعـركـة، فدرسهـا على أرضها الصعبة وفي مراجعهـا المتشـابكـة اوفى دراسة واصدقها، فيمكن الرجوع اليها للاطلاع على تلك الصورة الكاملة لها.

**غزوة الخنـدق**: عنـدمـا عاد المشركون من احد، اخذوا يتلاومون ويقولون فيـما بينهم ان نصـرهم لاقيمـة له مادام محمـد حيـاً ومـا دام الأسـلام قائماً في المدينة. واقترح بعضهم، ومن جملتهم عكرمة بن ابي جهل، العودة الى المدينة للاجهاز على المسلمين الا انه، ان كان المسلمون قد اصيبوا حينذاك بنكسة كبيرة، فان المشركين لم يخرجـوا منهـا ايضـاً سالمين من الخسائر (الكبيرة نسبياً) في الرجال والمعدات. فصفوان بن امية مثلا قال وهو يعارض فكرة العودة الى المدينة: «لسنا في حالة افضل من اتباع محمد، فمعظم خيولنا اصيبت وجرح كثير من رجالنا*». فالمعركة، كما سبق وقلنا، لم تكن حاسمـة بالنسبـة للطـرفـين. ونتيجتها من حيث الجوهر للدعوة الاسلامية كثورة ضد نظـام قائم وعـد بأفنـاء المسلمـين بها واستئصال الاسلام من جذوره، وقد «طبل وزمـر» بذلـك حتى سمعـه كل العـرب. الا انـه عندما «انجلى الغبار»، وبرز الواقع على جليتـه، تبـين ان الاسـلام وصـاحبه واصحابه مازالوا قائمين... فأصيبت قريش بهزيمة معنوية كبيرة، وكأن ضربتها كانت في الهواء: بقيت يثرب قائمة تؤوى النظام الثوري الجديد وتغلق على قريش طريق تجارتها المار بها الى الشام.*

* المرجع السـابق ص ٦٥ و ٦٦.

حاولت قريش قبل احد اتخاذ طريق آخر، بالالتفاف بعيداً عن المدينة، والذهاب الى العراق عن طريق نجد، ثم اتيان الشام من العراق، وجربت ارسال عير على هذا الطريق بقيادة ابي سفيان. الا ان خبر هذه القافلة بلغ النبي عليه السلام، فأرسل لها زيد بن حارثة على رأس سرية اخذتها في ماء بناحية نجد اسمه «القَرْدَة»**، وهرب ابو سفيان وصحبه. وكان هذا من الأسباب التي دفعت قريش الى تجهيز حملة أحد. وبعد أحد لم تتغير الحال كما قلنا. بل على العكس من هذا، فالنظام الاسلامي في يثرب لم يتوقف ابدا عن تعزيز مواقعه: حول المدينة، ثم ابعد فابعد. فغداة أحد مباشرة، والدماء تنزف من جراح المسلمين، لاحق عليه السلام جيش المشركين الى حمراء الأسد. وقبل مضي ثلاثة اشهر من أحد أرسل سرية بقيادة ابي سلمة بن عبد الأسد المخزومي بددت جمعا لبني أسد كان زعيمان فيه: طليحة وسلمة ابنا خويلد الأسدي، يدعوانه الى مهاجمة المسلمين، وكان ينزل في قطنا، وهو جبل لبني أسد في شمالي المدينة الشرقي. وفي هذا الوقت ايضاً، أي في السنة الرابعة للهجرة، أرسل عليه السلام من قتل في عرنة (وهو مكان قرب مكة بين منى وعرفات) سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي الذي كان يجمع الجموع لمحاربته. وبعد خمسة اشهر من وقعة احد اجلى عليه السلام بني النضير عن المدينة بعد ان تحمل منهم المزعجات والصعوبات التي حاولوا في نهايتها اغتياله، وسنعود الى هذا الموضوع فيما يلي من البحث. وفي تاريخ مقارب (في ربيع الآخر) خرج ﷺ في سبعمائة مقاتل وفرق تجمعات في نجد من بني محارب وبني ثعلبة، وهي غزوة ذات الرقاع، وفيها صلى النبي بالناس صلاة الخوف تجاه العدو (الذي دب فيه الذعر فأنهزم مباشرة قبل القتال). وفي شعبان من هذه السنة الرابعة خرج عليه السلام الى بدر بألف وخمسمائة من اصحابه ليوافي جيش المشركين هناك قبولا لتحدي ابي سفيان الذي نادى المسلمين عقب احد بقوله: «موعدكم العام القادم في بدر». الا انه عليه السلام لم يجد المشركين الذين اخلفوا وتراجعوا عن تحديهم، وكان ذلك نصراً كبيراً للمسلمين. وخرج النبي في ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة لتأديب قوم من الأعراب في دومة الجندل (الجوف حالياً) كانوا يعتدون على من يمر بهم، كما كانوا ينوون الدنو من المدينة. وقد

** المرجع نفسه.

تفرقوا قبل ان يلتقي بهم. وفي طريق عودته عليه السلام صالح عيينة بن حصن الفزاري، وكان يسميه: «الأحمق المطاع»، اذ كان بأمرته الف قناة. وقد اقطعه أرضاً يرعى فيها مواشيه على بعد ستة وثلاثين ميلا من المدينة. وفي شعبان من هذا العام هزم عليه السلام في غزوة المريسيع (وهو ماء لخزاعة) جموع بني المصطلق* الذين كانوا اعانوا قريشاً عليه في احد. وقد تزوج النبي بريرة ابنة الحارث سيد بني المصطلق، فكان ان اعتق المسلمون الأسرى الذين اخذوا في هذه المعركة قائلين: «اصهار رسول الله لاينبغي اسرهم في ايدينا»، فكانت بريرة (التي سماها عليه السلام جويرية) «ايمن امرأة على قومها» كما قالت عائشة رضي الله عنها. وكان من نتيجة هذا ان اسلم بنو المصطلق على بكرة ابيهم.

لم تخل هذه الفترة من منغصات وآلام شديدة المت بالمسلمين فالمشركون في مكة وفي مختلف انحاء الجزيرة العربية، ما كانوا بالهينين ففي صفر من السنة الرابعة للهجرة غدر رهط عضل والقارة بجماعة عاصم بن ثابت الانصاري، وكانوا عشرة، ودلوا عليهم هذيلا* التي قتلت بعضهم، وباعت اثنين منهم لقريش حيث قتلا هناك انتقاماً لقتلى المشركين في حروبهم ضد الرسول. وقال احدهما قبل ان يقتل وهو خبيب بن عدي:

ولست ابالي حين اقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الاله وان يشأ ... يبارك على اوصال شلو ممزع

وفي شهر صفر ذاته عدا عامر بن الطفيل على «القراء» الذين ذهبوا لنشر الدعوة في نجد، وليفقهوا الناس هناك، وكان عددهم سبعين قارئاً، فقتلهم جميعاً الا اثنين منهم سلما بأعجوبة. وقد حزن النبي عليهم حزناً شديداً، ودعى شهرا في الصلاة على الغادرين**.

---

* بنو المصطلق فخذ من خزاعة. يقول الشيخان الشرقاوي والغزي على هامش «التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدي، الطبعة الازهرية ص ٨٥، المصطلق لقب جذيمة بن سعد بن عمر جد الفخذ، سمي به لحسن صوته.

* جماعة سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي المار ذكره اعلاه امر بقتله ﷺ.

** ان تاريخ بعض الحوادث المار ذكرها اعلاه التي وضعناها بين احد والخندق هو ما اتفقت عليه معظم كتب السيرة.

وأثناء العودة من غزوة بني المصطلق كادت تقع فتنة بين المهاجرين والانصار، واستغل المنافقون الحادث، وحاولوا تضخيمه. الا ان حكمة النبي عليه السلام اخمدت الفتنة وردت كيد المنافقين. وفي اثناء هذه المسيرة ايضاً قام حديث الافك، كل هذا من الامور التي اعتاد اعداء الانسان على مر التاريخ ممارستها ضد المجاهدين في سبيل تقدم الانسان وخلاصه من القهر. انهم لايتورعون عن ارتكاب أبشع الجرائم، وممارسة كل قذارة في غاية الوصول الى غاياتهم في قهر الانسان. ان «السي. آي - أي» مثلا لديها دائرة خاصة، تضم مختلف الاخصاصات في الدعاية وعلم النفس والمجتمع وغيره، وتنفق عشرات الملايين، لتزوير الأخبار، وافتعال الدسائس، وتشويه سمعة الناس المعارضين لعدوان اميركا في مختلف انحاء العالم. فقدماء المشركين والمنافقين والكفرة الآخرين كانوا يرتجلون الدسائس والافكار ارتجالاً: عند سنوح الفرص، اما قاهروا الانسان المعاصرون فيزرعون الشر ويرعونه (بما لديهم من وسائل جبارة) الى ان «ينضج» فيوزعونه كذباً وفجوراً محاولين به «تحطيم» رؤوس الناس وقلوبهم...

ان غزوة الخندق كانت ذروة مابلغه جهد المشركين للقضاء على الدعوة الاسلامية، كما شكلت اكبر خطر تعرضت له هذه الدعوة. وقد خرج الاسلام بعدها قوة راسخة رسوخ القدر لا يردها شيء. وقد جمع لها المشركون كل ماباستطاعتهم جمعه من اعداء لها، ثم اتوا الى المدينة لاستئصالها، وقد سميت لذلك ايضا غزوة الأحزاب، أي الحملة التي تجمع فيها عدد من الفئات المختلفة لحرب الاسلام.

**﴿ اذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً. واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا﴾.**

(الاحزاب من ١٠ - ١٢)

وكان عليه السلام يردد على الدوام بعد انتصاره بهذه المعركة القول التالي (الذي ردده المسلمون من بعده دوما في المناسبات الكبيرة والاعياد) مما يدل على ان النصر في هذه الغزوة كان حاسماً لتقدم الدعوة الاسلامية: *

* التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للزبيدي ص ٨٤.

﴿ لا اله الا الله وحده، اعز جنده، ونصر عبده، وغلب الاحزاب وحده، فلا شيء بعده ﴾

كانت يثرب في عهد الرسول تتألف من عدد من التجمعات السكانية، من عدد من القرى، تفصل بينها البساتين والحرات، وتحيط بها غابات النخيل. والحرات هي عبارة عن ارض بركانية وعرة تتشكل من الصخور الكبيرة. فكانت هناك الواقم في شرق المدينة وتمتد الى جنوبها، حيث تلتقي بحرة الوبرة التي تحيط بغرب المدينة. وتنتشر العديد من المرتفعات في هذه الحرات. ففي شمال المدينة سلسلة من المرتفعات تشكل قوسا ينتهي في الشرق بجبلي احد وثور. والى الجنوب (في قباء) نجد جبل عسير، وفي الغرب جبل حمادات. وهنالك خط مرتفعات هام يقع مباشرة في الحدود الشمالية للمدينة ويمتد بين الحرتين الآنفتي الذكر: الواقم والوبرة، ويتألف من مرتفع الشيخين في الشرق عند الحدود الغربية لحرة الواقم، ثم تل ضباب على بعد ميل واحد الى الجنوب الغربي من الشيخين، ثم جبل سلع ويبعد نصف ميل الى الجنوب الغربي من ضباب، ثم جبل عبيد الى الغرب من سلع على بعد ميل منه. ويشكل جبل عبيد مع تلال مزاد في شماله كتلة طبيعية واحدة تقع على الحدود الشرقية من حرة الوبرة. وقد «غلف» الخندق خط المرتفعات هذا من شماله، بحيث بقي الغلف المذكور ضمن دفاعات الجيش الاسلامي في تلك الغزوة. وكانت قوة المسلمين الرئيسية تتمركز في سلع الآنف الذكر الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٤٠٠ قدم وطوله ميل واحد، ويقع في وسط التشكيلة الاسلامية التي كانت ترتكز على خط التلال الآنفة الذكر*.

ان تحرك الجيوش في الحرات يشكل صعوبة كبيرة، وتستحيل فيها المناورة. وكانت حدود المدينة في وقت الغزوة مشتبكة على العموم بالبيوت والنخيل ولا يمكن اتيانها بالجيوش الا من شمالها. ولهذا السبب رأينا أبو سفيان يأتيها في الغزوتين: أحد والخندق، من الجهة الشمالية مع ان مسيرته اتت من الجنوب (من مكة). أي ان طريقه كان يمر في غربي المدينة ويتجه الى شمالها، ثم يعود ويتجه نحو الجنوب اليها من جهة جبل أحد. وذلك بدلا من ان يدخلها من جنوبها، من قباء، كما دخلها عليه السلام عند هجرته اليها، وذلك لصعوبة مهاجمتها من هذه الجهة الوعرة حيث تشتبك حدودها بالبيوت والبساتين.

* انظر «سيف الله خالد» المذكور آنفا للجنرال اكرم ص ٧٧-٨١.

تقول كتب السيرة ان رؤساء بني النضير لم يهدأ لهم بال بعد طردهم من المدينة وعملوا كل مابوسعهم للعودة اليها وللقضاء على الاسلام وكانت قريش تنظر الى اتساع الدعوة الاسلامية وتوطد هيبتها بعين القلق والخوف. كانت تدرك ان هذه الدعوة لابد من ان تصل، ان تركت وشأنها، الى مرحلة الهجوم عليها والقضاء على زعامتها للجزيرة العربية القائمة على عبادة اصنام الكعبة. يضاف الى هذا ما كان من تزايد ضيق الخناق عليها كل يوم وتعطيل تجارتها بتصاعد قوة الاسلام في المدينة وما حولها: قطع تجارتها مع سورية. لذلك وجد رؤساء بني النضير الآنفي الذكر تجاوباً كبيراً عند زعماء قريش وارتياحاً عندما اتوا اليهم في مكة يحرضونهم على قتال المسلمين، لاسيما وانهم وعدوهم بالعمل على جر مابقي من يهود في المدينة، وهم بنو قريظة، الى الانضمام الى الحلف. وبرقت الآمال عند المشركين بأمكان مهاجمة يثرب من داخلها وخارجها. وجاء بنو النضير ايضاً الى غطفان واقنعوها بالانضمام الى الحلف بعد ان اخبروها بأن قريشا قد قبلت تزعم الحملة على يثرب. وكانت غطفان، كما مر معنا، قد صالحت النبي، وقد اعطى عليه السلام رئيسها عيينة بن حصن حق المرعى في اراضي المدينة.

وقامت الاستعدادات على قدم وساق لتعبئة الحملة وتجهيزها. فحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة فرس وخمسمائة بعير، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة العبدري. وحشد عيينة بن حصن الف فارس من غطفان. واتى بنو مرة وعددهم اربعمائة بقيادة الحارث بن عوف المرى، وبنو اشجع يقودهم ابو مسعود بن رخيلة، وسبعمائة مقاتل من بني سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وبنو اسد يقودهم طليحة بن خويلد الاسدي. فكانت عدة هذا الحشد عشرة آلاف مقاتل، وكان قائده العام ابو سفيان بن حرب.

وكانت اخبار المشركين واستعداداتهم تصل الى رسول الله عليه السلام. فاستشار اصحابه فيما يجب عمله. ايخرج من يثرب لملاقاة ذلك الحشد الكبير، ام يستقر فيها متخذا وضع الدفاع عنها. وكان ان اشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق في الجهة التي اشرنا اليها اعلاه (في حالة اقرار الوقوف على الدفاع ومواجهة المشركين في المدينة). وقد قبل عليه السلام هذه الفكرة وامر بحفر الخندق. وكان ذلك المشروع عملا هائلا في تلك الارض الصعبة، بوسائل تلك الايام، وفي

الفترة الزمنية المتاحة قبل وصول العدو: كان طول الخندق يزيد على الثلاثة اميال (اي مايقارب الستة كيلو مترات). ولابد من ان يكون بعرض لايقل عن المترين وبعمق لايقل عن متر ونصف المتر، كي يصلح (مع اتربة الحفر وحجارته المكومة على حافته القصوى الى جهة العدو) نقول كي يصلح كمانع لعبور كثيف للخيالة، وكمعوق لزحف كثيف للمشاة. فالطبري* يروي ان نوفل بن عبد الله، وهو ابن عم خالد بن الوليد، وقع في الخندق، فحمل عليه المسلمون يرمونه بالحجارة، فاستجار بهم قائلاً « يامعشر العرب قتلة احسن من هذه . . » فنزل اليه علي بن ابي طالب وقتله؟ وفي رأي آخر اكثر شيوعاً، انه وقع في الخندق فاندقت عنقه* . وفي الحالتين نجد ان ابعاد الخندق كانت قريبة من المقاييس التي ذكرناها. وقد اعطى عليه السلام اربعين ذراعاً (أي ما يقارب العشرين متراً) للحفر في الخندق لكل عشرة رجال. أي انه كان على الرجل الواحد ان يحفر وينقل اثنى عشر طنا من الاتربة والحجارة. ونجد بحسب المعطيات الآنفة الذكر، ان عدد من أشتغل بهذا الانجاز الهائل من الرجال يتراوح بين الثلاثة والاربعة آلاف رجل، حفروا وحركوا ما بين اربعين وخمسين الف طن من الاتربة والحجارة في أيام معدودة وبوسائل ذلك العصر. لقد كان الجهد المبذول بالغ الضخامة قاسى المسلمون فيه الصعوبات الجسيمة وكان صبرهم وتنظيمهم على قدر تلك المهمة الضخمة التي استشار انجازها اعجاب وعجب قائد جموع العدو ابي سفيان فقال: «والله ان هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها . . .» ** . وكان ﷺ يشارك رجاله في اعمال الحفر ونقل التراب متمثلا بشعر ابن رواحة:

اللهم لولا انت مااهتدينا ولاتصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا وثبت الاقدام ان لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وان ارادوا فتنة ابينا

ووضع ﷺ قوته الرئيسية في سفوح سلع، وكانت تعد ثلاثة آلاف مقاتل (وقد مر معنا هذا اعلاه). كما وضع على مختلف التلال المشرفة على الخندق (التي مر وصفها اعلاه) مائتي رجل للمراقبة ولعرقلة عبور العدو للخندق، لاسيما في المواضع

---

* ج٢ ص ٢٤٠، ورد الخبر في كتاب الجنرال اكرم الآنف الذكر ص ٩٠.
* نور اليقين ص ١٨٤.
** ابن هشام ج٢ ص٢٢٢ وردت في كتاب «سيف الله خالد» للجنرال اكرم المار ذكره ص ٧٩.

الضعيفة منه (الضيقة)، وذلك بالرمي بالنشاب، ريثما يتم تدخل القوى الرئيسية. وشكل قوة متحركة من خمسمائة مقاتل، تجوب مختلف انحاء أرض المدينة واحيائها للقضاء على أي تسلل محتمل للعدو. وكانت الخطة في غاية البساطة وتعطي افضل النتائج:

١ـ ان المشركين لايتمكنون من عبور الخندق الا بعدد محدود ليأخذوا رأس جسر في نقطة او عدد من نقاطه على الضفة في طرف المسلمين، ثم ردمه في كل نقطة من نقاط العبور تلك لتسهيل مرور بقية قواتهم. ومثل هذه المحاولات تعرقل اولا من قبل النبالة القائمين على التلال المار ذكرها اعلاه وفي مختلف نقاط الحراسة، ثم تحبط ويباد القائمون بها من قبل قوات مناسبة من الجيش الاسلامي المتمركز في سفح جبل سلع المار ذكره. اما اقتراب المشركين باعداد كبيرة لردم الاقسام التي يحتاجونها من الخندق فانه يعرضهم للسهام القاتلة للمدافعين المسلمين. وليس امامهم بالتالي الا اسلوب رأس الجسر الأنف الذكر الذي يجب ان يؤخذ بشكل سريع ومفاجيء بقوات الخيالة من نقاط مناسبة. ولكن المشركين في كل الحالات (التي وقعت فعلا والافتراضية التي كان بالامكان وقوعها) يخسرون بذلك الوضع القائم ميزة تفوقهم العددي وتفوق وسائلهم، فينتقل التفوق بالخندق الى المسلمين من كل الاوجه في ساحة القتال التي فرضوها على اعدائهم، وهي التي في جهة الخندق التي هم فيها.

٢ـ هنالك احتمال اتباع المشركين خطة الحصار الطويل ليثرب وهو احتمال ضعيف لأن القريشيين قوم تجار لابد لهم من العودة سريعا الى اشغالهم، كما ان هذا الاسلوب مكلف يتطلب انجاحه اعدادا من المقاتلين اكبر بكثير مما كان موجودا لديهم منها لسد كل منافذ المدينة عبر البساتين والحرات الوعرة.

٣ـ ان أي تسرب للمشركين الى المنطقة الداخلية من الخندق، أو من الحرات او البساتين، بقصد ارتكاب الاعمال التخريبية، وبث الفوضى في مؤخرات المسلمين، يمكن القضاء عليه فورا بالقوة المتحركة المؤلفة من خمسمائة مقاتل المذكورة اعلاه.

٤ـ ان احتمال قيام بني قريظة بخيانة عهودهم وبمهاجمة مؤخرات المسلمين كان يشكل ارباكا كبيرا للمدافعين، الا انه ما كان بالامكان ان يؤدي ابدا الى قلب موازين التفوق التي حصلت بحفر الخندق لصالح هؤلاء المدافعين، الى قلب هذه

الموازين لتصبح في صالح المشركين. فمشكلة عبور الخندق تبقى قائمة في وجه المشركين فيما لو وقع هذا الأمر، وكان بالامكان ارسال قوة كافية من جيش سلع المذكور تتعاون مع تلك القوة المتحركة المشار اليها اعلاه للقضاء على حركة القرظيين التي لن تكون اشد خطرا من تسلل يقوم به المشركون. فعدد المحاربين من بني قريظة حسب كل كتب السيرة بين ٤٠٠ و ٧٠٠ مقاتل، وهم الرجال الذين حكم عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بالقتل. اما من بقي منهم فكان من النساء والاطفال. وما كان كل اولئك الرجال سيرسلون للقيام بعملية الغدر فيما لو وقعت. وكان لابد من ترك بعضهم في ديار بني قريظة عند النساء والاطفال لحمايتهم. والقيادة الاسلامية لم تكن غافلة عن مثل هذا الاحتمال، لذلك قامت منذ البدء بتشكيل تلك القوة المتحركة المؤلفة من خمسمائة مقاتل للقضاء على أي تسلل أوخيانة. وبرأينا ان الفزع الذي الم بجمهور المسلمين عندما بلغهم نقض بني قريظة لعهودهم ووشك انضمامهم للعدو كان سببه المنافقين وارجافهم، وهذا امر طبيعي يصيب كل جماعة تشعر بان طعنة غادرة توشك ان تسدد اليها من الخلف في الوقت الذي يكون هنالك مرجفون يضخمون الخطر ويحاولون النيل من معنوياتها:

**﴿ واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا. واذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم فأرجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا. ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا. ﴾**

(الاحزاب من ١٢-١٤)

وما مس ذلك الفزع القيادة الاسلامية التي بلغت الكمال في ترتيباتها الدفاعية، فلم تترك اية ثغرة في دفاعاتها ينفذ منها العدو، لم تترك اية «عورة» في تلك الترتيبات. كان الرسول ﷺ وكثيرون من صحابته وجنده واثقين تماما من سلامة الوضع، وثابتين في مواقفهم كالجبال الرواسي:

**﴿ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا. ولما رأى المؤمنون**

**الاحـزاب قالـوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما.﴾**

(الاحزاب ٢١ و ٢٢)

اما نجاح نعيم بن مسعود الاشجعي الغطفاني الذي اوقع بين بني قريظة وبين قريش فانه ماكان ليكون لولا الوضع القوى الذي كان يتمتع به المسلمون. فكل من قريظة وقريش كان يرى هذا الوضع فيصدق بالتالي ماكان يقوله نعيم المذكور، الذي لم يكن على كل حال عمله الا عمـل فرد يحذل ماستطـاع الاعـداء كما قال له عليـه السلام : «انت رجل واحد، وماذا عسى ان تفعل. لكن خذل عنا ما استطعت فان الحـرب خدعـة». وقـد نجـح بالفعـل بتوفير ارباك كبير على دفاع المسلمين، الا ان الـرسـول ﷺ، كان بكلمته الآنفة الذكر واثقاً كل الثقة من تدابيره المتخذة، وان كان بداهـة يسعى دومـا الى توفـير كل صعـوبـة اضـافيـة على المسلمـين تقف في طريق ظفـرهم. وقـد بالـغ اصحاب السيرة في ارجاع النصر الى هذا السبب الجانبي الذي قام به فرد واحـد، او الى اسبـاب طبيعيـة تتنـاول الطرفين بالتساوى كالرياح والبرد. فالمسلمـون كانـوا في العـراء كالمشـركين يفعل بهم البرد والريح. والمنافقون مثلا طلبوا العودة الى البيوت بحجة انها «عورة»، اى ان جند المسلمين ما كانوا يقاتلون الاعداء وهم محتمون في بيوتهم. ثم انه ﷺ في الليلة التي انسحب فيه المشركون (بعد ان يئسوا من امكـان النيـل من المسلمـين) سمع ضجة آتية من جهتهم فقال لأصحابه : «لابد من حادث، فمن منكم ينظر لنا القوم.». فسكتوا حتى كرر هذا السؤال ثلاثا، وكان فيـهـم حذيفـة بن اليـمان، فقـال عليـه السـلام : «تسمـع صوتي منـذ الليلة ولاتجيب...». فقال حذيفة : «يارسول الله البرد شديد». فقال الرسول : «اذهب في حاجة رسول الله واكشف لنا خبر القوم». فذهب رضي الله عنه واستطلع خبرهم وعـاد فأخـبر النبي برحيلهم*. نقول اذن ان نعيم بن مسعود وفر على المسلمين ازعاجاً بايقـاعـه بين القرظيين والمشركين، ولكن عمله الجيد هذا لايمكن ان يغطي كل ذلك الجهـد الهـائـل الذي بذله المسلمون في حفر الخندق، مع استعدادتهم الأخرى المادية والروحية لخوض تلك المعركة الكبرى الحاسمة، التي تعينت فيها الخطوط في اللحظة التي تمت فيهـا جاهـزية المسلمين للقتال بحسب تدابير قائدهم العظيم. وقد رأينا ان

* حديث عن مسلم وقد رواه الحاكم والحافظ والبهيقي في الدلائل.

ابا سفيان قد شهد بهذا بقوله الذي نعيده هنا : «والله ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها . . .»، وذلك عندما وقع نظره على الخندق، ذلك الانجاز الهائل .

ان النصر ليس في عدد القتلى ومقدار الخسائر التي يمنى بها المنهزم، وانما ببلوغ الهدف الذي يتوخاه المنتصر بخوضه المعركة، والخسارة تكون ايضاً بالتقصير عن بلوغ ذلك الهدف . فالقرشيون في غزوة الخندق لم يحققوا أي هدف فيها، وخسروا فوق ذلك هيبتهم امام العرب (بعد ان «طبلوا وزمروا» وصاحوا بأعلى صوتهم انهم ذاهبون للقضاء على الاسلام بحشودهم التي لم يسبق لها مثيل من قبل، كفعل كل رجعي ظالم عندما يذهب لقتال ثائر على البغي والجهالة، ثم عادوا بخفي حنين) . أما الاسلام فكان نصره كبيرا في تلك المعركة، اذ أرسى بها أركان دعوته نهائياً في جزيرة العرب باكتسابه احترام سكانها، وبابرازه استحالة النيل من معقله الحصين يثرب . ثم ان تشكيلات القتال الاسلامية وظروفها المادية والروحية التي كان يعدها القائد العظيم ﷺ هي تشكيلات ثورية تتوخى، كما هو الحال دوماً في ممارسات الثوار، «قلب» التفوق ونقله من كثرة العتاة الظُلّام الى القلة المؤمنة الثائرة على العتو والقهر . ويتم هذا الأمر بفرض ساحة قتال ملائمة تحرم اولئك العتاة من ميزاتهم المادية في الكثرة والوسائل . وفي بدر مثلاً والخندق نجد هذا الجوهر ذاته : في المعركة الأولى قلب التفوق من قريش الى المسلمين بحصر المعركة حول الحوض، وتوفير الظرف لرماة المسلمين بانهاك العدو، وبأيقافه بعيداً عن الماء المدة الكافية لتحطيم معنوياته، ثم الاجهاز عليه بشن هجوم في اللحظة المناسبة . وفي المعركة الأخرى قلب التفوق من قريش الى المسلمين بالخندق الذي أكمل مناعة يثرب وسد الثغرة اليها . فكان أمام المشركين خياران لا ثالث لهما :

الأول الوقوف أمام الخندق وقد اسقط في ايديهم فلا يدرون ما العمل .

الثاني المغامرة واقتحام الخندق والتعرض للأبادة .

وقد مرت قريش بالأمرين معاً، فاندهشت أمام الخندق واحتارت فيما يجب فعله، كما جربت اقتحامه وارتدت خائبة . لقد وضعتها القيادة الاسلامية أمام استحالة خوض القتال وهي متمتعة بالكثرة والوسائل، أو انها تتعرض للأبادة عند اقدامها عليه بالظروف المفروضة عليها، «فسلمت» وانسحبت .

لقد كانت الخندق، بخلاف القائلين بأن النصر كان «للدبلوماسية»، نموذجاً

فريداً في نوعه لنصر عسكري كبير : انهزم المشركون أمام مناعة المسلمين في الترتيبات التي اتخذوها بعد ذلك الجهد الهائل الذي بذلوه لسد ثغرة يثرب بالخندق، وليس بالخدعة أو بالمحاولات الدبلوماسية التي اتت حينذاك كافعال جانبية لأبعاد بعض الصعوبات التي كان يمكن التغلب عليها بقوة السلاح، فيما لو لم تؤد تلك الأفعال الى نتيجة. وقد حا ول عليه السلام مثلاً، من باب ايقاع الفرقة في صفوف الاعداء ودفع بعضهم الى الانسحاب، فعرض على عيينة بن حصن (قائد غطفان الآنف الذكر) سحب مقاتليه لقاء ثلث ثمار المدينة وقد أبى الأنصار ذلك قائلين: «انهم لم يكونوا ينالون من ثمرنا الا شراء أو قرى ونحن كفار، أفبعد الاسلام يشاركوننا فيها..». وفي هذا نرى مقدار ثقة اصحاب النبي بسلامة وضعهم، كما ان عدم انتهاء هذا المسعى الى نتيجة وبقاء غطفان حتى النهاية في صفوف الأحزاب لم يغير شيئا في النتيجة وهي هزيمة هذه الأحزاب.

وكانت الأحزاب قد اخذت مواقعها حول يثرب في أول شوال من العام الخامس هجري. فنزلت قريش بمجمع الاسيال، وهو ذات الموقع الذي نزلت به في احد. ونزلت غطفان في جهة احد. ثم تقدمت مقاتلتهم نحو مواقع المسلمين فاصطدموا بالخندق كما مر معنا. وقاموا بنشر قواتهم على طول الخندق، وأخذوا يترامون بالنبل مع المسلمين، بأنتظار قيام بني قريظة بدورهم في مهاجمة مؤخرات المدافعين في يثرب. وعندما فشلت مساعيهم بتحريك القرظيين قاموا بمحاولتين فاشلتين لأقامة رأس جسر في العدوة الأخرى من الخندق، الأولى بخيالة عكرمة بن ابي جهل والثانية بخيالة خالد بن الوليد. ودامت محاولات المشركين وحصارهم للخندق مدة ثلاثة وعشرين يوماً لم يتمكنوا خلالها من احراز أي تقدم. ودبت الفوضى في صفوفهم، واستولى عليهم اليأس والفزع. وفي آخر ليلة هبت ريح شديدة اقتلعت خيامهم في مؤخراتهم، واطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، فأشتد يأسهم وذعرهم، وقام أخيراً ابو سفيان فصاح بالقرشيين قائلاً: «يامعشر قريش انكم والله ما اصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ماترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فأرتحلوا فاني مرتحل»* . ولشدة خوفهم، اوصاهم ابو سفيان بالتعرف بعضهم

* سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢٣٢ . وقد استشهد بهذه العبارة الجنرال اكرم ببحثه المشار اليه آنفاً.

على بعضهم الآخر «فيمسك كل واحد منهم يد قريبه» كي لايدخل بينهم عدو. وترك خالد بن الوليد لحماية مؤخراته.

وقد استشهد في هذه الغزوة سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه، فقد اصيب بأكحله** بسهم رماه به احد المشركين فقطعه. وقد امر عليه السلام بنقله الى المسجد وقامت امرأة بتمريضه. وكان يدعو ربه قائلاً: اللهم لاتمتني حتى تقر عيني من بني قريظة. ان غزوة الخندق هي احد أروع لوحات الجهاد في الاسلام، وكان ﷺ قائدها العظيم يمثل قمة الصبر والتواضع والتجاوب الصحيح مع تطورات احداثها: جعل من المؤمنين كتلة ممتنعة على كل محاولة تفتيت، ووضعها في مواقع المنعة، ونزل فيها مع ابسط جنوده: يحفر وينقل التراب ويقوم بالحراسات الليلية في قر تلك الليالي الشديدة البرودة العاصفة، وعاش ايامها لحظة بلحظة قلباً نابضاً يوزع اسباب الحياة على مختلف اطراف جسمه.*

**الجهاد من أجل كمال التوحيد**: ان من اشد العقبات التي تقف في طريق الثورات الانسانية الكبرى، الثورات التي تدفع بجملة المجتمعات الانسانية من طور الى طور اعلى، اوتدفعها للسير في مرحلة انتقال الى الطور الأعلى، هي القوى الوارثة لعقائد كانت في ماضي الزمان ثورية، ثم تجمدت بفعل الأيام وأصابها العقم. وليس هذا فحسب، بل هنالك ايضاً ما يعتورها من تشويه متماد بفعل الانتهاز، والدجل، والتكسب بهاوتطويعها لمنافع أنانية، فردية أوطبقية، بحيث تغدو في نهاية الأمر وثنية تسحق بثقلها الناس، مع انها قامت في الأصل لنفعهم وخلاصهم. فالرجعيون ورثة الثورات الخامدة، الذين يتسلحون بعقائد جامدة شوهاء، الا انها تبقى متماسكة وخادعة، يشكلون دوما، في كل مراحل التاريخ، اعداء خطرين للثورات ولكل تغير نحو الأفضل؛انهم بأسم خلاص الانسان يسحقون الانسان،

---

** عرق في الذراع.

* هنالك مشاهد اخرى مشهورة لم نأت على ذكرها هنا لأنها فردية كمصرع عمرو بن ود بيد علي رضي الله عنه، أو لأنه ليس لها اهمية كبيرة من الناحية العسكرية، وجميع هذه المشاهد لها اخبارها في كتب السيرة.

وهم بما لديهم من «بقايا» افكار انسانية كانت قد حملتها ثورة قديمة يخدعون كتل البسطاء من الناس ليتخلى هؤلاء عن انسانيتهم ويمدوا بأعناقهم لأغلال قهر جديدة. وقد أشرنا في اكثر من مناسبة الى ان الوثنية (بكل اشكالها المتتابعة عبر تاريخ الانسان) هي جوهر العبوديات من كل نوع، فتتجسد بها، وتجد فيها كامل ابعادها وطقوسها وممارساتها الحية. وكان التوحيد يعبر عن طموح الشرفاء والمستضعفين الى اخوة البشر ومنع القهر فيما بينهم، فقامت ثوراته المتعددة لتهدم الفساد بهدم اصنام الوثنية. ولكن الفساد عاد وشوه التوحيد وجمده بعد كل ثورة مقيما بذلك وثنية مناسبة. فهذا مثلا القديس اوغسطين (٣٥٤-٤٣٠ م)، نجده يعتبر العبودية في كتابه «مدينة الله» (الذي اتى على غرار المدينة الفاضلة لافلاطون). عقوبة للانسان اقرها القانون لحفظ النظام الطبيعي وان على العبيد ان يخضعوا لأسيادهم لأن حريتهم تكمن في عبوديتهم المخلصة...». وقد اشرنا الى هذا القول فيما سبق من البحث فنجد هنا هذا «الوارث» الكبير للثورة المسيحية يحاول تجديد صيغة افلاطون الوثني في معاملة العبيد، ولكن في هذه الصيغة الجديدة يجب ان يأتي «الاخلاص والعدل» من ناحية العبيد وليس من ناحية الأسياد كما نصح به ذلك الوثني افلاطون...* مع ان السيد المسيح أقدم على التضحية القصوى، بالصعود على الصليب وتحمل عذابه الرهيب، من أجل اخوة الناس في الله، وخلاصهم من القهر في الدنيا والآخرة.

وهنالك مثل آخر «للموحدين» يمجدون الوثنية، ويفضلونها على التوحيد، ويقدمون لها القرابين، لأن هذا الفعل يلائم مصالحهم المادية. فمعقل الثورة الاسلامية يشرب قطع، كما رأينا اعلاه، «الشريان» التجاري من مكة الى الشام. وكانت خيبر على هذا الطريق. لذلك رأى زعماء اليهود في هذا المركز التجاري الأخير ان من الخير لتجارتهم ان يرسلوا وفداً الى قريش لتحريضها للقضاء على محمد ودعوته، وقد مر معنا هذا في غزوة الخندق. وكان في ذلك الوفد اليهودي الحاقد حيي بن اخطب سيد بني النضير وأبو رافع سلام بن ابي الحقيق سيد اهل خيبر الذي كان لقبه تاجر اهل الحجاز لأتساع اعماله التجارية ولثروته الطائلة. وقد سأل ابو سفيان حيي بن اخطب: «هل دين محمد خير من ديننا...» فأجابه حيي: «كلا ان

---

* انظر الصفحة ٧٠٩ و ٧١٠ من المجلد السابع من الكتب الكبرى للغرب طبعة بريتانيكا
** الكتاب السادس لافلاطون. القوانين.

دينكم خير من دينه، وأقول هذا وأنا من أهل الكتاب». وقد ذهب اولئك الكتابيون مع الوثنيين الى اللات وقدموا لها القرابين وأقسموا عندها بالحفاظ على التحالف مع المشركين الى ان يتم القضاء على محمد ودعوته. كما ضمنوا لهم مظاهرة من بقي في المدينة من يهود وهم بنو قريظة. ورأينا ما انتهى اليه هذا الحلف* :

**﴿ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا. اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا.﴾**

(النساء ٥٠ و ٥١)

والمقصود بالجبت والطاغوت اصنام قريش**.

ان الدعوة الاسلامية لم تصادف اذن في طريقها عند قيامها وثنية قريش فقط، بل وجدت امامها ايضا ديانات التوحيد الأخرى بكل ما خلفته فيها القرون الطويلة من تشويه لمحتواها وتعطيل لجوهرها الصافي الذي قامت به وهو : الكفاح من أجل اخوة البشر والقضاء على الطغيان. وقد قلنا ان وثنية قريش والعرب الآخرين ما كانت في واقع الأمر الا العقبة الأولى في طريق الاسلام نحو تغيير الطور العبودي. أما العقبات الكبرى والاساسية فكانت العبودية العالمية القائمة في منطقة البحر المتوسط على عقائد توحيد منحرفة : مسيحية الروم، وزرادشتية الفرس التي غلبتها المجوسية. الا انه قبل الاصطدام بهؤلاء، اصطدم الاسلام بموحدي الجزيرة العربية، لاسيما منهم اليهود.

كان من الطبيعي ان يدعو النبي ﷺ أهل الكتاب كما دعا المشركين بالحكمة والموعظة الحسنة، وان لايتعرض لهم مالم يتعرضوا لدعوته ومسيرته نحو هدفه واتمام مهمته. ولم يكن في مكة وجود هام للكتابيين يدعو الى التوجه اليهم بشكل خاص، كما كان الحال مع الاكثرية المشركة التي كانت تشكل المحيط الطبيعي للدعوة في

---

* انظر سيرة ابن هشام ج٢ ص ٢١٤ وج٣ ص ٢٢٩ وابن سعد ج٣ ص١٠٨ وما بعدها. والاستاذ محمد دروزة في الكتاب «الجهاد في سبيل الله» ص ٢٤٢، والجنرال اكرم في كتاب «سيف الله خالد» ص ٧٤.

** تفسير الجلالين والطبري والبغوي وابن كثير.

سنـواتهـا الأولى . ومن جهـة ثانية كانت القوة المادية للدعوة في مكة في مرحلة بدايات نشـوئهـا ، ومـا كانت حينذاك قد بلغت الشكل الذي اخذته فيما بعد في يثرب ، فكان بديهيـا ان لاتثـير اهتـمام الكتابيين كقوة مادية ، وان استثار «ادبها» ، ان صح التعبير ، المتجسد بالقرآن الكريم واحاديث النبي ، واستثارت مساجلاتها مع المشركين واخبارها اليـوميـة ، الخـارجـة عن المألـوف ، اهتمام العرب وفضول بعضهم الآخر في كل انحاء جزيرتهم ، ثم تجاوزت اصداؤ ها الحدود الى الحبشة والشام وما بين النهرين ومصر .

ولعل الكتابيين كانوا يطمحون في باكورة الدعوة الاسلامية الى رؤ ية ابرشية أو حاخـاميـة تقـوم في مكـة (تلك العقـدة التجـاريـة الهـامـة ، ليس في الجـزيرة العربية فحسب ، بل في منطقة البحر الابيض المتوسط) بنتيجة استجابة نفر من المشركين لها . ولكن استقـلاليـة الـدعـوة وتفـردها واصالتها ، كل هذا لم يتأخر عن الظهور منذ وقت مبكـر من السنـين المكيـة . فهي قد ردت بحـزم كل ما من شأنه المساس بوحدانية الله وانتفاء مجانسته : تجسيده وتحديده بكائن مادي مقيد بزمان ومكان ، أو تأليه مثل هذا الكائن ، أو رفعه ليكون ولدا أو كفؤا له :

**﴿ قل هو الله احد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفؤا احد . ﴾**

وكان نفي الوهية المسيح في مكة بدلالة الآيتين المكيتين التاليتين :

**﴿ ذلـك عيـسى بن مريـم قول الحـق الـذي فيـه يمترون . ما كان الله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضي امرا فانما يقول له كن فيكون . ﴾**

(مريم ٣٤ و ٣٥)

وفي مكـة دعي اليهـود والنصـارى الى الاسلام ، تماما كما دعي المشركون ، كما جاء في الآية المكية التلية :

**﴿ الـذين يتبعـون الـرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتـوبـا عنـدهم في التـوراة والانجيـل يأمـرهم بالمعـروف وينهـاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون ﴾** (الاعراف ١٥٦)

واتت الدعوة الاسلامية بأخبار انبياء ورسل الكتابيين، واثنت عليهم وعلى جهادهم، واحترمت ذكراهم وذكرى من آمن بهم وصبر معهم ولم يكن هذا، كما يدعي بعضهم، بقصد ترغيب اتباعهم المعاصرين بالاستجابة لها أو مناصرتها. كما لم يكن تقريع هؤلاء الاتباع، وعيب انحرافاتهم، بسبب خيبة املها فيهم عندما رأتهم يناصبونها العداء. فالموقفان يتمان احدهما الآخر، وليس بينهما أي تعارض، اذ يشكلان تطبيقاً مخلصاً لعقيدتها. فالايمان عند المسلم ليس فقط برسالة النبي عليه السلام، بل لابد له لكي يكون صحيحاً من ان يتضمن الايمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، بالاضافة الى ممارسة فرائض الدين الاسلامي. وجوهر التوحيد والصلاح الانساني، المادي والروحي، بنظر الاسلام واحد ماتغير من رسالة الى اخرى. وتشكل الرسالات التوحيدية سلسة واحدة متصلة حلقاتها بعضها ببعض بهذا الجوهر:

**﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾**

(البقرة ٢٨٥)

انها صيغة رائعة لاتصال ووحدة الثورات على الظلم والفساد بنظر الاسلام. وهو بحسب هذه الصيغة مدافع صلب عن استقامة هذه المسيرة الانسانية، فيثني على حسناتها ويتغنى بمواقف الصبر والبطولة والعدل فيها، ويشجب كل انحراف عن استقامتها، لافرق عنده بين حسن أو قبيح افعال السابقين له من اهل الكتاب وبين حسن أو قبيح افعال اتباعه من المسلمين. ان في القرآن الكريم اكثر من عتاب شديد لصاحب الرسالة بالذات، واكثر من لوم وتقريع وتهديد لمسلمين مؤمنين بسبب افعال لاتنسجم مع نقاء الدعوة. والاسلام هو كل الاديان التي اتت لصلاح الانسان في الأرض، ليس فقط كفرد يؤدي واجباته تجاه خالقه، بل ايضاً كجملة مجتمعات ترتقي دوماً في طريق الصلاح، من طور الى طور اعلى على هذا الطريق. فصلاح الفرد لا يتجلى الا بصلاح افعاله في وسطه الذي هو المجتمع. كما ان صلاح المجتمع لايقوم على افراد فاسدين «منهمكين» ابدا في الاساءة بعضهم الى بعض، ولا على افراد مسحوقين (بسبب خوف منهم لامبرر له على صلاح المجتمع).

لم تنتشر المسيحية في منطقة الحجاز كما انتشرت اليهودية فيها، يضاف الى هذا ان مسيحي الجزيرة كانوا جميعا من العرب، على خلاف يهودها فكانوا عبرانيين على العموم، وكان فيهم عرب تهودوا لاسيما في اليمن. وكانت كثرة المسيحيين في مشارف الشام حيث كان ولاؤهم لغساسنة بصرى المسيحيين ايضا، وفي نجران، شمالي اليمن، وقد وفد احبار هؤلاء ورؤساؤهم الى المدنية في السنة العاشرة للهجرة حاملين الهدايا الى النبي ﷺ. ولهؤلاء خبر طويل في كتب السيرة في قدومهم هذا الى المدينة حيث رفضوا الدخول في الاسلام في النهاية وقبلوا باعطاء الجزية. اما الاحتكاك الأول مع نصارى مشارف الشام فقد كان في غزوة دومة الجندل المشار اليها سابقاً. اما بقية المواقع مع هذه الفئة من النصارى فهي في الواقع تشكل طليعة المواقع الجهادية ضد الامبراطورية الرومية وكذلك ضد الامبراطورية الفارسية، على اعتبار ان التخوم الشمالية للجزيرة العربية تشكل منطقة عرضانية بين مسرحي العمليات في الشام والعراق. وسنعود الى هذا الموضوع فيما يلي من البحث. اما الآن فسنبقى في مجال الجهاد من أجل القاعدة الضرورية للانطلاق في عملية اقامة دار الاسلام، وذلك بتحرير الجزيرة العربية من وثنيتها، وكان الجهاد ضد اليهود من أول ضرورات هذا التحرير، كما هو الحال في ايامنا، حيث نرى استحالة الفصل بين الصهيونية والجاهلية المعاصرة: عندما تصطدم بالواحدة منهما تبرز لك الأخرى... وقد اتى في القرآن الكريم امراً بقتال كل من لم يؤمن بالاسلام من اهل الكتاب حتى يؤمن به او يؤدي الجزية:

**﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون. ﴾**

(التوبة ٢٩)

قلنا ان الجزيرة العربية كانت تشكل موزع (سنترال) خطوط التجارة العالمية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط (لمنطقة امبراطوريتي الروم والفرس). فكان ان جذبت جماعات عديدة من مناطق مابين النهرين وسورية ومصر وغيرها، للاستقرار في واحاتها، وفي اسواقها على الطرق التجارية، وفي الأراضي الخصبة في اليمن والخليج. ولم تكن ايضاً الهجرة الى الجزيرة العربية للأرتزاق فقط، وانما كان منها

للأحتماء بها، كأرض بعيدة صعبة المنال، لجماعات انسانية اصابها اضطهاد النظام العبودي في المناطق الآنفة الذكر. أي انه كان هنالك تياران انسانيان قائمان عبر الطور العبودي للجملة الانسانية في منطقة البحر المتوسط :

الأول ـ تيار الأقوام السامية الخارجة من الجزيرة العربية والمنتشرة في مناطق الشام وما بين النهرين ومصر لأسباب وظروف تاريخية عديدة قامت طوال عشرات قرون ذلك الطور العبودي.

الثاني ـ تيار الجماعات (السامية بمعظمها) الآتية من المناطق المذكورة اعلاه للاستقرار في الجزيرة العربية.

وكانت هجرة ابراهيم عليه السلام، مع زوجته هاجر وولده اسماعيل وتوطنه في مكة، واحدة من تلك الهجرات التي تشكل التيار الثاني المذكور، وبرهانا على قيامه، ورمزا لهجرات عديدة اخرى، سبقته او لحقته، في كل تلك الأزمنة الطويلة للطور العبودي لجملة مجتمعات البحر الأبيض المتوسط، على اعتبار ان اثره التاريخي والأجتماعي كان شديداً بحيث بقي في ذاكرة الأجيال وأحتوى امثاله التي وقعت في ازمنة اخرى مختلفة. ومما لاريب فيه ان تكوّن العرب المستعربة كان نتيجة هذه العملية التاريخية الطويلة. ولعل بامكاننا القول : ان السامي بهذه العملية كان يدخل جزيرتنا مستعرباً عدنانياً، ويخرج منها عارباً قحطانياً، بعد تمام «نضجه» فيها. ذلك لأن الدهور الطويلة تزيل كل حاجز وتقرب كل بعد بين مختلف الجماعات الانسانية.

وظهرت جماعات اسرائيلية نتيجة لتلك الحركات الانسانية في الحجاز وفي مشارف الشام على الطريق التجاري الرئيسي الذاهب من مكة الى الشام. في يثرب وخيبر وغيرها وامتهنت هذه الجماعات التجارة ومختلف الحرف والزراعة. وشاعت فيها اللغة العربية التي غدت لغتها الوحيدة بمرور الزمن (غدت لغة الأم). وكان فيهم شعراء مجيدون بها. منهم السموأل مثلا صاحب الخبر المشهور مع امرؤ القيس، وأبو عفك الذي كان يهجو الرسول بشعره فأمر بقتله وغيرهما. وقطن يثرب ثلاث عشائر : بنو قينقاع والنضير وقريظة. ولم تكن هذه العشائر على وفاق، بل كانت تقوم فيما بينها العداوة وتقتتل من آن لآخر. وكانت كل واحدة منها تحالف فئة تناسبها من عرب المدينة. كان بنو قينقاع وبنو النضير مثلا عند اجلائهم عن يثرب حلفاء الخزرج. أما بنو قريظة فكانوا حلفاء الأوس. وقد مر معنا ان يثرب في عصر النبي ﷺ كانت تقوم

على مجموعة قرى، فكان لكل من العشائر اليهودية الثلاث الآنفة الذكر قريتها المحصنة فيها. وعندما وصل النبي مهاجراً اليها عقد معهم عهداً بترك الحرب والأذى، وان لايعينوا عليه احداً، وان دهمه بالمدينة عدو ينصرونه، ولهم شأنهم ودينهم.

وكان ان وحد الاسلام عرب يثرب بعد ان كانوامنقسمين الى فئتين متناحرتين متقاتلتين على الدوام. الأوس والخزرج. فحرم بذلك اليهود احلافا يعينونهم عندما يقع الخصام فيما بينهم. وتغير على الأخص وضعهم وتأثيرهم الاجتماعي الذي كان لهم بين العرب الذين توحدوا وغدوا بالاسلام اصحاب كتاب يصحح كثيراً من انحرافات عقيدتهم الكتابية ويعيب تلك الانحرافات، كما ينسخ مالا يتلائم مع تقدم العصر من هذه العقيدة. وبأختصار ما كان الاسلام في البدء مريحاً لهم، ثم اخذ بتقدم نظامه، يغير كل المعالم المادية والروحية «للمناخ» الاجتماعي (للتربة) التي كانت تقوم فيها كياناتهم. فكان عداؤ هم يتصاعد بتقدم الاسلام، كما كان تلهفهم على بقاء الشرك وانتصاره، تلهفهم على بقاء ذلك المناخ الذي قامت فيه كياناتهم الطفيلية، يشتد بعد كل انتصار يحرزه النبي على المشركين. وانتهى بهم الأمر الى انهم كانوا ينقضون كل عهد عاهدوا عليه النبي :

**﴿ أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل اكثرهم لايؤمنون ﴾**

(البقرة ١٠٠)

**﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لايتقون ﴾**

(الانفال ٥٦)

ثم انهم حالفوا المشركين علناً وغدروا بالمسلمين في اوقات الضيق :

**﴿ الم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون الجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا. ﴾**

(النساء٥٠)

فكان حتماً على الاسلام اذن ان يقتلعهم من قاعدته التي كان يعدها للانطلاق

الى بناء داره العالمية، لا تعدياً، وانما دفاعاً ورداً على خياناتهم لعهودهم وتحالفهم مع المشركين:

اولا: وقعت بعد غزوة بدر الكبرى ازمة بين المسلمين وبين بني قينقاع بسبب اعتداء هؤلاء الأخيرين على سيدة من نساء الأنصار. وكان بالامكان ان يؤدي مثل هذا الحادث الى فتنة بين المسلمين بسبب التحالفات التي اشرنا اليها اعلاه بين اليهود وعرب يثرب. يضاف الى هذا كون هذا الحادث يشكل عدواناً على المسلمين لا يصح السكوت عليه. فدعا عليه السلام رؤساءهم وانذرهم بعدم تكرار مثل هذا الحادث. فما كان منهم الا ان قالوا: «يامحمد لا يغرنك مالقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب. ولو لقيتنا لتعلمن انا نحن الناس». وقد اشارت الآية التالية الى هذا الخبر:

**﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار. ﴾**

(آل عمران ١٢ و١٣)

فكان عندئذ على النبي ان يأخذ حيطته من هذا الأمر المستجد لاسيما بعد اشتباكه الأول مع قريش ووصول الأخبار من مكة عن عزمهم على الثأر:

**﴿ وأما تخافن من قوم خيانة فأنبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين. ﴾**

(الانفال ٥٦)

وهذا يعني امراً للرسول بطرح العهد قبل مناجزتهم الحرب كي يكونوا على علم بالأمر ولا يؤخذوا غدراً بدلالة جملة: **﴿ ان الله لا يحب الخائنين ﴾***

وتبرأ عند وصول الأمور الى هذا الحد عبادة بن الصامت احد رؤساء الخزرج من حلفهم، بينما تشبث به المنافق عبد الله بن ابي. وكان بنو قينقاع يعتمدون على هذا الخلاف عندما عاندوا النبي عليه السلام ثم انهم اخذوا يعلنون عداوتهم

---

* نور اليقين للخضري. هامش صفحة ١٤٣.

ويكررون تهديداتهم وتحصنوا بحصونهم. إلا ان النبي لم يمهلهم واخذهم بكل حزم. فسار اليهم في منتصف شوال من السنة الثانية هجرية، يحمل لواءه الحمزة بن عبد المطلب. فحاصرهم خمس عشرة ليلة. وفي النهاية عندما يئسوا من قيام الشقاق بين المسلمين وتخلى عنهم المنافقون، ادركهم الرعب وطلبوا التسليم. على ان يخرجوا من يثرب بالنساء والذرية، وللمسلمين الاموال. وقد قام بترحيلهم بأمر من الرسول عبادة بن الصامت، وتم هذا الأمر خلال ثلاث ليال، حيث خرجوا من الجزيرة العربية وذهبوا الى اذرعات في الشام.

ثانياً: كانت العلاقات بين المسلمين وبين بني النضير، العشيرة الأخرى من اليهود التي كانت تحالف الخزرج (كعشيرة بني قينقاع السابقة) تتفاقم بتوالي الأيام، وبتوطيد الكيان الاسلامي:

**﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ﴾**

(الحشر ٤)

وهنالك خلاف في زمن بني النضير. قال البخاري عن الزهري عن عروة انه قال: كانت بنو النضير بعد بدر بستة اشهر قبل احد* أما ابن هشام وأبن سعد فير يان انها كانت بعد احد بخمسة اشهر**. ورأينا مع هذا الأخير للاسباب التلية:

١ـ لو كانت قبل احد لكان لهم ذكر في هذه الوقعة كما كان لهم في غزوة الخندق، عندما دفعهم حقدهم على الاسلام بسبب اخراجهم من يثرب الى تحريض قريش لأقامة حلف الاحزاب ومهاجمة يثرب.

٢ـ بعد بدر، وبعد طرد بني قينقاع، كان الاسلام يمر بفترة صعود، فكان من المستبعد ان تبدي هذه العشيرة عداءها للمسلمين وهي في تلك العزلة.

٣ـ مما جرأ بني النضير على اظهار الشقاق هو ان الاسلام اصيب بنكسة في احد.

ثم ان بني النضير حاولوا اغتيال النبي عليه السلام اثناء ذهابه مع بعض

---

* نور اليقين للخضري هامش ص ١٦٨.

** انظر هامش ص ٣٢١ من «الجهاد في سبيل الله» للاستاذ محمد عزة دروزة.

اصحابه الى محلتهم لشأن بينه وبينهم. فقال بعضهم لبعض : انها فرصة سانحة للتخلص منه بطرح صخرة عليه من فوق سطح بيت كان من المتوقع ان يمر بحذائه. فعلم عليه السلام بهذه المؤامراة التي احبطت. وفي اليوم التالي ارسل اليهم ينذرهم بالرحيل وترك يثرب، على ان يأخذوا اموالهم، ويقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم. ولكن المنافق عبد الله بن ابي حرضهم على الرفض ووعدهم بالمساعدة. وقد استجابوا له فسار عندئذ النبي وحاصرهم وقطع غراس نخلهم. ولم يف لهم المنافقون بما وعدوهم من مساعدة :

**﴿ الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون. لئن اخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون. ﴾**
(الحشر ١١ و ١٢)

واشتد عليهم الحصار، ودب فيهم الرعب، فسلموا بشرط اشد من الشروط السابقة وهي : «اخذ ماتستطيع ابلهم حمله من المنقولات دون السلاح الذي يسلم الى المسلمين. والتخلي عن بساتينهم ومزارعهم». ثم خرجوا بعد ان هدموا بيوتهم بأيديهم، وذهبوا الى خيبر، وقليل منهم الى اذرعات لاحقين بمن سبقهم من بني قينقاع. وكان ممن خرج من بني النضير زعيمان فيهم مر ذكرهما في وفد يهود خيبر الذي ذهب لتحريض قريش على اقامة حلف الاحزاب وحرب المسلمين، وهما ابورافع سلام بن ابي الحقيق، وحيي بن اخطب. وقد تزعم هذان الرجلان يهود خيبر وما يليها من قراهم نحو التخوم الشامية.

ثالثاً رأينا فيما سبق من البحث ان وفداً من بني النضير ذهب الى مكة يحرض قريشاً على اقامة حلف الاحزاب ومهاجمة يثرب، ووعدها بالعمل على تحريك بني قريظة ليهاجموا المسلمين من خلفهم. وذهب حيي بن اخطب لهذا الغرض وتسلل الى قريتهم الواقعة على بعد يقرب من أربعة كيلومترات الى الجنوب الشرقي من يثرب (ولكنها كانت مع ذلك من منطقة الدفاعات الاسلامية في موقعة الاحزاب). ونجح حيي (بعد الحاح) بأقناع القرظيين وسيدهم كعب بن اسد بنقض عهدهم مع النبي.

وبدر منه اثناء حصار المشركين ليثرب مايشير الى هذا التغير في موقفهم منها مثلا خبر ذلك اليهودي الذي اتى الى دار حسان بن ثابت، التي كانت تحتمي فيها جماعة من نساء المسلمين واولادهم، واخذ يطوف بها مستطلعاً. وقد نزلت اليه بعض النسوة بقيادة صفية بنت عبد المطلب وقتلته. وأرسل عليه السلام سعد بن معاذ من الأوس و سعد بن عبادة من الخزرج لاستجلاء موقفهم المستجد والوقوف على اخبارهم، وفي قيل آخر انه ارسل اليهم الزبير بن العوام لهذا الغرض. وتأكد لرسل النبي اليهم ما بيتوه من غدر بالمسلمين، في تلك الساعات العصيبة التي كانوا فيها منشغلين بعدو آخر، حتى ان سعد بن معاذ رضي الله عنه عاب خيانتهم وشتمهم، فقال له رفيقه سعد بن عبادة : «دع مشاتمتهم فان مابيننا أربى من ذلك. . .».

ويفهم من بعض اخبار السيرة ان اتصال ابن اخطب ببني قريظة، كان في اثناء حصار الاحزاب للمدينة. فيقول خبر مثلا : عندما طال الحصار على الاحزاب بدأ التذمر ينتشر بينهم، فهم ماكانوا معتادين على هذا الكشل من الحروب، وكانوا يفضلون الاشتباك في الساحة المكشوفة، والكر والفر وما الى ذلك من اساليب كما ان الطعام بدأ بالنقصان عندهم، وكان الطقس يزداد سوءاً كل يوم. فطلب أبو سفيان من حيي بن اخطب ان يتصل بالقرظيين ليحرضهم ويقنعهم بمهاجمة المسلمين من الخلف، في الوقت الذي يهاجم المشركون من جهة الخندق. فكان ان ذهب حيي اليهم وكان ماكان من امرهم. والاصح برأينا هو : ان هذا الاتصال في اثناء الحصار كان لملاحقة بني قريظة للوفاء بعهد كانوا قطعوه على انفسهم، لوفد بني النضير المذكور آنفاً، بالانضمام الى الحلف، وذلك في لقاء سابق مع بعض افراد هذا الوفد اثناء اعداد الحلف وقبل حفر الخندق. فالخبر الذي نجده في السيرة* ومآله : ان كعب بن اسد القرظي اغلق باب حصنه دون حيي بن اخطب الذي اتاه اثناء حصار المشركين ليثرب، بناء على طلب ابي سفيان الآنف الذكر، وقال له : «ويحك ياحيي انك امرؤ مشؤوم، واني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض مابيني وبينه، ولم ار منه الا وفاء وصدقا»، وذلك قبل ان يفتح له ويأذن له بالدخول عليه في حصنه، بدلالة جوابه له : «ويحك ياكعب افتح لي اكلمك.»، نقول ان الخبر يدل بوضوح على ان

---

* انظر ابن هشام ج[٢] ص ٢٢٢، والواقدي في المغازي. ص ٢٩٢

القرظي المذكور كان يعرف الغرض الذي اتى من أجله حيي قبل ان يفتح له باب حصنه ويكلمه . أي انه جرى لقاء (او بالاحرى جرت لقاءات) بين كعب وحيي ، كما قلنا ، في مرحلة التحضير لمهاجمة يثرب من قبل المشركين ، وقد تعهد القرظيون في النتيجة بالانضمام الى الاحزاب في الوقت المناسب ، الا انهم عندما شاهدوا بأم العين الانجاز الهائل الذي حققه المسلمون بحفر الخندق ، قبل وصول قريش وحلفائها ، مع الاعدادات الاخرى ، بالتحشد الكبير نسبياً للمسلمين عند سلع ، ووضع الحراسات في النقاط المناسبة من الخندق ، وعلى التلال المشرفة عليه والمتحكمةفيه بالنبل ،ثم تلك القوة المتحركة التي اشرنا اليها عندما تكلمنا عن غزوة الخندق ، والمؤلفة من خمسمائة مقاتل من الخيالة ، نقول عندما شاهد القرظيون كل هذه الترتيبات القوية للدفاع ، خافوا وتراجعوا . ومما لاريب فيه ان النبي عليه السلام كان (بواسطة عيونه في مكة وعندهم) على علم بتطورات موقفهم طوال الوقت من بدء الاعداد لأقامة حلف الأحزاب والاتصالات الأولى لبني النضير بهم لتحريضهم على نقض عهودهم معه ، فأعد بذلك كل ما يلزم لمواجهتهم ومواجهة المشركين . وقد فشلت كل محاولات المشركين للنيل من الوضع القوى للمسلمين ، ولم يفدهم في شيء نجاح أبن أخطب في اعادة القرظيين الى صفهم في زيارته الأخيرة لهم اثناء احتدام المعركة التي انتهت الى ما نعلم .

وبعد هزيمة الأحزاب ، وتفرق شملهم ، وتراجعهم امام الدفاعات الاسلامية ، غاد الرسول بجيشه الى يثرب ، وكان ذلك في النهار التالي لليلة انسحاب المشركين . وقبل ان يخلع الناس لباس الحرب أمرهم عليه السلام بالتوجه فوراً الى منازل بني قريظة وقال لهم : «لايصلين احد منكم العصر الا في بني قريظة» . ذلك لأنه كان من الحزم عدم تركهم بعد الذي ظهر منهم في تلك الاوقات العصيبة التي مر بها المسلمون أيام الخندق . وكان جيش المسلمين يعد ثلاثة آلاف مقاتل . ولما رآه القرظيون أصابهم الرعب وحاولوا انكار غدرهم . فلم يسمع منهم واستمر حصارهم مدة خمسة وعشرين يوما . وفي النهاية نزلوا وسلموا على ان يحكم فيهم سعد بن معاذ حليفهم وسيد الأوس . وقد مر معنا انه اصيب على الخندق بسهم في اكحله ، وانه عليه السلام امر بوضعه في مسجد المدينة وان تعتني به امرأة عينها له . فأتى به ليحكم ببني قريظة ، وكان حكمه «ان يقتل الرجال وتسبى النساء والذرية» . وقد قال له النبي : «لقد حكمت فيهم بحكم الله» . ونفذ فيهم الحكم :

﴿ وانـزل الـذين ظاهـروهم من اهـل الكتـاب من صيـاصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقـا . وأورثكم ارضهم وديـارهم وامـوا لهم وارضـا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾

(الاحزاب ٢٦ و ٢٧)

وقـد انفجـر جرح سعـد بن معاذ واستشهد رضي الله عنه . وبالانتهاء من بني قريظـة ، لم يبق في يثـرب الا قليـل من اليهـود لاخطـر منهم ، وفقد المنافقون فيها آخر حليف لهم ، وخسر النفاق كل سند مادي وأدبي :

﴿ واذا لقـوا الـذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ﴾

(البقرة ١٤)

وأخـذ بعـد ذلـك بالانحسار والتلاشي . وبـرز الاسـلام في يثرب وفيما حولها القوة الوحيدة التي لاينافسها منافس . وهذا وضع جديد تماما في الجزيرة العربية ، التي قلنا فيما سبق من البحث ان «المدن الجمهورية» كانت منتشرة فيها ، كتلك التي عرفت في اليـونـان قبل قيام امبراطورية الاسكندر . لقد كانت يثرب قبل الاسلام مدينة زراعية قريبـة من الشـريـان التجـاري الكبـير الـذاهب من مكـة ، القلب النـابض للتجارة العـربيـة ، الى الشام ، والى مابين النهرين . ولكن سكان يثرب ما كانوا قبل الاسلام يشبهون قريش في وحدتهم وتجانسهم . كان القتال لايهدأ بين القبيلتين الرئيسيتين فيها الاوس والخـزرج ، كما لم يكن كل سكـانهـا عربـا ، كمكـة ، وانـما يسـاكنهم يهود يتخـاصمـون فيما بينهم ايضا . أما بعد غزوة الخندق ، وانهاء وجود اليهود فيها (وكانت قبـل هذا القبيلتـان : الأوسيـة والخزرجية ، قد انتهتا بأخوة الاسلام) فانها برزت امام العـرب ، ليس فقـط كنـد لمكـة ، وانـما ايضـا كقوة صاعدة يصعب تخمين الحدود التي ستقف عندها . لقد اصبح حينذاك للتوحيد الثائر على وثنية العبودية ، وعلى التوحيد المشـوه المنحـرف الى خدمـة العبـوديـة ، مدينتـه الخالصة لسلطته . وكان هذا الوضع مقدمة لصلح الحديبية العظيم .

رابعـا ـ رأينـا ان المسلمـين غنموا من يهود المدينة اسلحة وكان مما غنموه من بني قريظة مثلا الفا رمح وخمسمائة سيف ومثلها من التروس وثلاثمائة درع . وورد كذلك في

اخبار السيرة عن غزوة خيبر ان المسلمين اخذوا اسيرا من اليهود في نهاية الاسبوع الأول من حصار ذلك الموقع. فقال لهم : «ان أمنتموني أدلكم على أمرفيه نجاحكم». فقالو : «دلنا، فقد امناك». فقال : «ان اهل هذا الحصن ادركهم الملال والتعب (والمقصود هنا حصن واحد من حصون خيبر المتعددة وهو الذي بدأ فيه المسلمون : من عندنا) وقد تركتهم يبعثون بأولادهم الى حصن الشق (وهو حصن آخر من خيبر : من عندنا). وسيخرجون لقتالكم غدا، فاذا فتح عليكم هذا الحصن غدا، فاني ادلكم علي بيت فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون . .» .فنجد ان كمية الاسلحة التي اخذت من بني قرظة التي كان اقصى حد لمقاتلتها ٧٠٠ مقاتل تفوق بكثير حاجة هؤلاء المقاتلين. مما يدل على ان اليهود كانوا يقتنون الاسلحة للمتاجرة بها. ويؤكد الخبر الثاني هذا الأمر. فوجود كميات كبيرة من الاسلحة «الخفيفة» كالسيوف وغيره، و«الثقيلة» كالمنجنيق والدبابت مجموعة في بيت واحد، يدل على ان صاحب هذا البيت من تجار الاسلحة. ذلك لأنه لم تكن هناك دولة لها جيشها النظامي ومخازن اسلحتها، والناس في الجزيرة العربية كانوا على العموم يقتنون اسلحتهم في بيوتهم. كل عائلة لها سلاحها في بيتها. أي ان اسلحة مدينة كخيبر لاتجمع في بيت واحد، لاسيما في ذلك الظرف الذي كانت فيه هذه المدينة تقاتل المسلمين الذين كانوا يحاصرونها. فكان لدى كل فرد فيها سلاحه حينذاك.

ويجدر بنا ان نذكر بما سبق ان قلناه من ان هدف الدعوة الاسلامية هو تغيير العلاقات الاجتماعية من القبلية الجاهلية الوثنية الى النظام الذي تسود فيه علاقات اعلى هي : مجموعة علاقات الاخوة الاسلامية. وكان في هذا ما فيه من تأثير سلبي على الكيانات اليهودية الرجعية التي ترعرعت علاقاتها الداخلية والخارجية على علاقات الجاهلية. فتجارة الاسلحة المار ذكرها الى جانب الربا وغيره من النشاط الحرفي والاقتصادي الذي يزدهر في الفوضى والحروب القبلية الجاهلية، كل هذا يتلاشى في ظل دولة تقوم على تعاليم الاسلام. لذلك كانت الكيانات اليهودية المنتشرة هنا وهناك على طرق التجارة في الجزيرة العربية، لاسيما منها تلك القائمة الى شمالي يثرب على طريق الشام والعراق، في خيبر وفدك، وتيماء، ووادي القرى، وهي اهمها واخطرها، تنظر نظرة العداء الشديد لتلك الثورة على الوثنية، فتناصر المشركين

عليها وتتحالف معهم ضدها، وتعمل مابوسعها لتقويض ما حققته دعوتها الاسلامية من انتصارات، ولعودة «الجاهلية الى الازدهار والترعرع». واذا كان الخلاص من يهود يثرب قد وفر للاسلام مدينته الخالصة، فان دعوته لابد لها من ان تصطدم باليهود الآخرين المار ذكرهم قبل هنيهة في مسيرتها نحو اقامة قاعدتها الكبرى (في الجزيرة العربية المحررة من جاهليتها الوثنية) للانطلاق الى العالم وازالة الطور العبودي، ودفع جملة المجتمعات الانسانية نحو الطور الاعلى : طور الحرفة الحرة والتجارة العالمية المزدهرة والجارية بدون عوائق.

كان امام يثرب الجديدة، بعد الخندق ورحيل القرظيين عنها، مركزا عداء منظمان ومباشران وخطران : قريش ويهود طريق الشام الآنفي الذكر. ولكن تنظيم الاعمال العدائية ضدها من قبل هذين المركزين بقي على الاسلوب الجاهلي، وما بلغ، على الرغم من خطره واهميته، مبلغ ما عليه قيادتها وعلى رأسها النبي ﷺ من نظام دقيق وتحليل بارع لمختلف الاحتمالات يقوم على ادراك عميق واسع لسير الاحداث والتاريخ، مع حزم لايعرف التواني في مواجهة الامور والاعداد لاخطارها في الوقت المناسب والتصدي لها بأفضل شكل.

وبعد مضي مايزيد على العام من غزوة الخندق رأى عليه السلام ان يبادر اعداء دعوته بعمل لابد من ان يؤدي الى احدى السلاسل المحتملة للاحداث الملائمة للدعوة. فقرر القيام بالعمرة واخبر المسلمين بذلك. وسنعود الى هذا الامر في موضع آخر من هذا البحث. وما يهمنا هنا ان نقول: ان هذه المبادرة ماكانت لتؤدي الا الى واحد من احتمالات ثلاثة:

١. ان يمنع القرشيون المسلمين بالقوة عن المسجد الحرام في الشهر الحرام ذي القعدة فيرتكبوا عاراً كبيراً امام العرب، فهم القائمون على سدانة البيت الحرام وتسهيل زيارته في الأشهر الحرم على الأخص. وفي هذه الحالة يكون النبي واصحابه في وضع معنوي قوي، اضافة الى انه ماكان لدى خصومه حينذاك من الاعداد المادي الكافي للقضاء على اصحاب تلك المسيرة السلمية بعملية غادرة:

**﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لايجدون وليا ولا نصيرا ﴾**

(الفتح ٢٢)

٢ . ان يتمكن المسلمـون من دخـول مكـة سلميا والطواف حول الكعبة ، وفي هذا مافيه من اذلال لقريش وتصغير لشأنها في اعين العرب .

٣ . ان يقـوم اتفـاق مابـين المسلمـين وبـين قريش ، وفي هذا ربـح كبـير للمسلمين ، اذ يتم به اعتراف قريش من الناحية الواقعية بالدعوة الاسلامية امام جميع العرب . وبنتيجة هذا الامر لابد من ان تقترب ساعة النصر الكبير بالقضاء على وثنية قريش . وكان هذا الاحتمال هو الذي وقع بصلح الحديبية .

وكانت هذه الاحتمالات بيد النبي ، وما كان هنالك سواها عندما يصمم عليه السلام على المسيرة المذكورة واهدافها . ومما يبرهن على ان ميل النبي وتفضيله كان للاحتـمال الاخـير قولـه قبـل وقـوعـه عندما بركت ناقته في مهبط الحديبية بثنية المرار: « . . حبسها حابس الفيل ، والذي نفس محمد بيده لاتدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم الحرمات ، الا اجبتهم اليها» . وكذلك باظهاره عليه السلام كل الدلائل عن رغبته في اللاعنف والسلام ، فقدم الهدى مثلا امام مسيرته ، ولم يأخذ من الاسلحة الا السيوف في قرابهـا ، واخـذ غير طريق خالـد بن الـوليـد الذي كان مقبلا على رأس مئتي خيال لصـد المسـيرة . ثم ان هذا الاحتـمال الاخـير عند وقوعه يفرغ النبي للعملية الطويلة القاسية وهي : انهاء مركز المقاومة اليهودي المار ذكره على طريق الشام . ولابد من ان تأتي الفـرصـة بعـد ذلك لأخذ مكة ، وسيكون ذلك اسهل واقل دموية بسبب تناقص عدد الاعـداء وتصـاعـد قوة الاسـلام . ان النبي بجهاده كان يتوخى الحفاظ ما امكن على المؤهـلات الانسـانيـة التي تؤمل فائدتها للدعوة ، لاسيما منها المؤهلات العربية وحـاملوهـا العـرب الـذين سيحملون رسـالته الى العالم ، فكان يعمل ماأمكن على حقن دمائهم ، بأنتظار مجيئهم للدخول في الاسلام .

ان هذا الرباط الذي نكشفه هنا بين صلح الحديبية وفتح مكة واسقاط الوجود اليهودي على طريق الشام والعراق نجده بوضوح في سورة الفتح التي انزل اكثرها في طريق عودة النبي بمسـيرتـه الظافرة من الحديبية الى يثرب . فالمفسرون يرون ان الله قد الهم رسوله في هذه السورة بالزحف مباشرة على خيبر :

**﴿ لقـد رضي الله عن المؤمنـين اذ يبـايعـونـك تحت الشجـرة فعلم ما فى قلوبهم فأنـزل السكينـة عليهم واثـابهم فتحا قريبا . . . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن**

المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾

(الفتح ١٨ و ٢٧)

والمقصود بالفتح في الآيتين فتح خيبر[1]* .

ان مما يدل على الاهمية الحاسمة التي كان ﷺ يعلقها على مسيرته السلمية الظافرة الى الحديبية ارتياحه الكبير لنتائج هذه المسيرة التي اتت حسب توقعاته والغبطة التي غمرته والتي عبر عنها لأصحابه بالشكل الوارد في الحديث التالي ** :

«عن انس قال انزلت على النبي ﷺ (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديبية فقال النبي ﷺ لقد نزلت علي آية احب الي مما على الأرض ثم قرأها عليهم فقالوا هنيئا مريئا لك يارسول الله قد بين الله لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت (ليدخل المؤمنين والمؤمنات حتى بلغ (فوزا عظيما).

ونكتب فيما يلي الآيتين الواردتين في هذا الحديث للتذكير بهما:

﴿ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . . . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيآتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما ﴾

(الفتح ٢ و ٥)

ان خيبر واحة كبيرة على بعد مائة ميل الى شمال غربي يثرب . وتتألف من ثلاث مجموعات من الحصون منفصلة بعضها عن بعض وتحيط بكل منها البساتين المشجرة:

مجموعة النطّاة : فيها حصون ناعم، والصعب، وقلة.

مجموعة الشق : فيها حصنا أبي والبرىء.

مجموعة الكثيبة : فيها حصون القموص، والوطيح، والسلالم.

---

* تفسير الجلالين.

** ورد في البخاري وتفسير الجلالين لسورة الفتح.

وبعد عودته ﷺ من الحديبية امر بالتجهز لغزو يهود طريق الشام: خيبر وتوابعها، في الظروف التي تهيأت بها انجزه في الحديبية من تحييد قريش. واستنفر الاعراب القريبين من المدينة الذين كانوا معه في مسيرة الحديبية. وجاءه الاعراب الآخرون الذين تخلفوا عن تلك المسيرة ليأذن لهم بالتوجه معه الى خيبر فقال لهم: «لاتخرجوا معي الا رغبة في الجهاد، اما الغنيمة فلا اعطيكم منها شيئاً». واذن لنسوة من غفار بمرافقة الجيش لمداواة الجرحى اثناء القتال، وقد جعل لهن نصيبا من الغنائم.

وكان تاريخ الغزوة، كما ورد في كتب السيرة، بعد صلح الحديبية بخمسة اشهر في قيل وبشهرين في قيل آخر. الا انه اذا كانت العمليات الحربية قد دامت هناك شهرا، وانتهت في شهر صفر من السنة السابعة، فان بدءها يكون في محرم من هذه السنة، اي بعد شهرين من الحديبية، وهذا مانرجحه. ذلك لأن الحديبية كانت كما سبق وقلنا الباب الى خيبر. والانتظار طويلا بعدها للقيام بتصفية الخطر اليهودي يتضمن احتمالا قويا برجوع قريش عن الصلح، فيعود انشغال المسلمين بعدوين بدلا من عدو واحد، وهو ما كان النبي يريد تحاشيه. ثم ان مثل هذا التأخير ما كان له أي مبرر.

وقد برز في الجزيرة العربية امر ما كان ملوفا من قبل وهو قيام قوة عسكرية مرهوبة الجانب، يشار اليها بأسمها العسكري: الخميس، وليس بأسم عشيرة أو مدينة أو فئة تعود اليها كما كانت العادة ايام الجاهلية. والخبر التالي المسند الى انس رضي الله عنه يدل على هذا الأمر. فجيش النبي وصل الى خيبر حين «بزغت الشمس، وقد أخرج اهلها مواشيهم وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومرورهم. وعندما رأوا المسلمين اخذوا يصيحون: محمد والخميس... فقال عليه السلام: الله اكبر خربت خيبر. انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» *. وقد فر القوم الى حصونهم لا يلوون على شيء.

وضرب النبي عليهم الحصار بادئا بمجموعة النّطاة وحصنها الناعم فأقام معسكره الى جهة الشرق من الحصن بعيدا عن مرمى النبل. واخذ يخرج كل يوم

---

* التاج ج ٤ ص ٣٧٩ و ٣٨٠. ورد الخبر في كتاب «الجهاد في سبيل الله» للاستاذ عزة دروزة.

على رأس طليعة من جيشه للمناوشة، وللبحث عن ثغرة في دفاعات العدو ولتهديم معنوياته. اما بقية الجيش فتترك مستنفرة في المعسكر بقيادة احد الصحابة، وتشكل احتياطا عاما للتدخل عند اللزوم. وقد امر عليه السلام في البدء بقطع نخل العدو لأرهابه، عله ينزل ويستسلم بشروط مناسبة. الا انه عندما رأى تصميمه على المقاومة امر بالتوقف عن قطع النخل، واستمر الحصار.

وكانت الحراسة ومراقبة منطقة العمليات تنظم بقيادة احد الصحابة الذي يحمل لقب: «حارس الجيش». وتذكر الاخبار بين كبار الصحابة الذين تناوبوا هذه المهمة اسمي الصحابيين الكبيرين: عمر بن الخطاب وابو ايوب الانصاري الذي استشهد على اسوار القسطنطينية ودفن هناك. وفي الليلة السابعة، كان حارس الجيش عمر بن الخطاب، وفيها وقع الحرس على يهودي يحاول، على مايبدو، التسلل والهرب بعيدا عن ميدان المعركة. وعندما استجوب افاد بأن اهل الحصن ادركهم الملال والتعب، وسيخرجون في الغداة للقتال بعد ان بعثوا بأولادهم الى حصن الشق. وان هنالك اسلحة في احد بيوت الحصن تفيد المسلمين في فتح بقية حصون خيبر. وقد سبق ان اوردنا خبر هذا اليهودي في مناسبة اخرى اعلاه. وكان صيدا ثمينا استغله المسلمون بأن وضعوا مايلزم من ترتيبات للاستفادة من خروج العدو المنتظر لاسقاط الحصن. وقد قال الرسول عليه السلام عندما سمع افادة الأسير: « سأعطي الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبانه». فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنونها. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ماتمنيت الامارة الا ليلتئذٍ». وفي الغداة سلم النبي الراية لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه. وعند التقاء الجمعين خرج قائد اليهود مرحب يطلب المبارزة وهو ينشد:

قد علمت خيبر اني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
اذا الحروب اقبلت تلتهب

فخرج اليه علي رضي الله عنه وهو يقول:

انا الذي سمتني امي حيدرة كليث غابات كريه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

والسندرة شجرة للقسي والنبل. وقول: اوفيهم بالصاع كيل السندرة، يعني اقتلهم قتلا واسعا كبيرا ذريعا. * ثم ان عليا قتل مرحب، وحمل المسلمون على اليهود

* المنجد.

وكشفوهم عن مواقعهم، ولاحقوهم الى الحصن الذي دخلوه عنوة واحتلوه.

هذا بعض ماروته كتب السيرة، الا انه عندما نضع الترتيب في هذه الاخبار بامكاننا ان نكون الصورة التالية لغزوة خيبر:

١. كان حصن الناعم يشكل الحلقة الاساسية في سلسلة حصون خيبر الآنفة الذكر، وقد جذب سقوطه كل هذه السلسلة ورماها بيد المسلمين.

٢. ان القيادة الاسلامية استفادت من معلومات اليهودي المار ذكره، فهيأت كمينا في مكان مناسب من مداخل الحصن (ونُذَكِّرُ بأن الحصن محاط بالزرع والغياض). وعندما خرج اهل هذا الحصن واشتبكوا بالقتال مع المسلمين، هجم الكمين في ظرف مناسب على مداخل الحصن واحتلها، وقطع طريق العودة على اليهود الذين اصبحوا من جهة بين مقاتلة المسلمين، ومن جهة اخرى بين رجال الكمين الذين احتلوا مداخل الحصن وقطعوا عليهم طريق العودة. فأضطروا لذلك الى الفرار نحو الحصن التالي في مجموعة حصون النّطاة، وهو حصن الصعب (كما جاء في كتب السيرة*)، تاركين بهذا حصنهم (حصن الناعم) بدون حماية كافية فسقط بسهولة.

٣. كان فرار مقاتلة حصن الناعم اليهود الآنفي الذكر نحو حصن الصعب، امرا مقدرا من قبل القيادة الاسلامية. فوضعت ايضا هذه القيادة في مكان مناسب من مداخل حصن الصعب المذكور كمينا ينتظر فتح ابواب هذا الحصن، وخروج مقاتليه لأستقبال الفارين المذكورين آنفا من حصن الناعم، وحمايتهم من ملاحقيهم المسلمين، وتسهيل دخولهم والتجائهم الى حصن الصعب حصنهم. وكان قائد هذا الكمين الحباب بن المنذر رضي الله عنه، وهو قائد مجرب مر ذكره في غزوة بدر، حيث اقترح على النبي تغوير آبار بدر الا واحدا منها يبني عليه حوض حوله دفاع المسلمين. وقد جرت معركة حامية حول المداخل المذكورة، تراجع فيها المسلمون قليلا، الا انهم مالبثوا ان هزموا اعداءهم ودخلوا الحصن عنوة. وقد انهزم من نجا من اليهود الى الحصن الاخير من مجموعة حصون النطاة، وهو حصن قلة.

٤. ما كانت تتوفر لدى المسلمين قوات كافية لملاحقة الهاربين الى حصن قلة

---

* نور اليقين للخضري ص ٢٢٩.

الأنف الـذكـر، ولـوضـع كمـين منـاسب على مداخل هذا الحصن. فقد كانت كل قواهم مشغـولـة في هذا الطـور من المعركة بالقضاء على ما بقي من مقاومات العدو في الحصنين السابقين: الناعم والصعب. لقد كانت مجموعة العمليات التي دارت حول هذين الحصنين تشكل كلا واحدا شغلت الجيش الاسلامي، الذي كان عليه بطبيعة الحـال ان يوفـر احتيـاطيـاً كافيـا لمراقبـة منطقـة خيـبر بكل حصونها، ورد كل مايزعج عملياته الآنفة الذكر حتى نهايتها. ولكن المسلمين وجدوا وسيلة لأجبار اهل الحصن على الخـروج للقتـال، وهي انهم استدلوا على الماء الذي يستقون منه، من الاسرى الـذين وقعـوا بايـديهم في الحصنـين السابقين، فقطعوه عنهم. وقاموا على حصارهم ثلاثة ايام، وفي اليوم الرابع خرج المحاصرون وتقاتلوا قتالا شديدا، الا انهم هزموا. ومـا كان من المفيـد لهم العودة الى حصنهم ليموتوا عطشا، فهم قد خرجوا منه للقتال بسبب قطـع المـاء عنـه. لذلك توجهوا بفرارهم الى الحصن التالي وهو حصن أبي من مجمـوعـة الشق الآنفـة الـذكـر. وتبعهم المسلمـون الى هذا المـوقع الذي خرج اهله لتسـهيل وصول الفارين اليه وحمايتهم. وهنا نشاهد ذات التكتيكات المتبعة في احتلال الحصنـين الأولـين: النـاعم والصعب من مجمـوعـة النّطـاة المذكورة اعلاه. ودار قتال شديـد على مداخـل هذا الحصن برز فيـه الصحابي ابودجانة رضي الله عنه، الذي كان يقـود على ما يبـدو الكمين الذي انقض على مداخل الحصن وقطع طريق تراجع المنهزمين اليهـود اليـه، فتـوجهـوا بفرارهم الى الحصن التالي البرىء. وعلى مايبدو اتعظ اهل هذا الحصن بما وقـع للحصـون السـابقـة، فلم يخرجوا منه لاستقبال الفارين اليهم، وحمايتهم وقتال المسلمين، فبقوا متحصنين فيه، وان كان بعض الفارين قد تمكن من بلوغ الحصن والاحتـماء فيـه، وبعضهم الآخـر استسلم ووقع في اسر المسلمين. وهنا واجـه المسلمـون مقـاومـة شديـدة من المتحصنين الذين واجهوهم برمي شديد بالنبل والحجـارة. وقـد اصـاب بعض رميهم الـرسـول ﷺ. وقد نصب المسلمون المنجنيق وضربوا تحصيناتهم به، فخافوا وهربوا منه، واحتله المسلمون.

٥. بعـد تصفيـة مجمـوعتي حصون النّطاة والشق، توجه المسلمون للانتهاء مما بقي من خيبر وهو: مجموعة حصون الكثيبة، وبدأوا بحصن القموص منها الذي قاوم مدة عشـرين يومـاً، فتـح في النهـايـة بقيـادة على بن ابي طالب رضي الله عنـه. اما الحصنان الأخيران من المجموعة وهما الوطيح والسلالم، فقد استسلما بدون قتال.

وبعد الانتهاء من خيبر صالح النبي يهود فدك على الخروج بعد ترك اموالهم. ورضي عليه السلام من اهل تيماء ان يدفعوا الجزية. اما يهود وادي القرى فحاولوا التمرد والمقاومة، فسار اليهم النبي بجيشه وقاتلهم وهزمهم. وفي كل المواقع السابقة، في خيبر وتوابعها من قرى اليهود في الحجاز، ابقى عليه السلام اليهود الذين لاخطر منهم، لأستغلال الأراضي على ان يكون للمسلمين حق اخراجهم من الجزيرة العربية متى شاؤوا. وقد اخرجهم عمر رضي الله عنه في خلافته. وقد خصص عليه السلام الحصة الحاصلة من محصول ارض فدك (بعد ان يأخذ اليهود العاملون في تلك الأرض نصيبهم) لمعيشة اهله ولبني هاشم ولفقراء المسلمين.

هنالك سلسلة من الوديان تبدأ من وادي العقيق، في منتصف الطريق بين مكة والمدينة المنورة، وتصل الى وادي الجزل، في منتصف الطريق بين المدينة وتبوك. وتتفرع هذه السلسلة في شماليها، بأتجاه شمال شرق بواد يمر بالعلا ومدائن صالح وتيماء التي تطل على صحراء النفوذ الكبرى وتقع على الطريق التجاري الذاهب الى مابين النهرين شمال بابل. وتقع يثرب في هذه السلسلة من الوديان التي يمر بها طريق مكة التجاري الى الشام والعراق. كما ان وادي القرى يشكل الجزء الاعمق والأخصب منها. وسمي بهذا الاسم لأحتوائه على عدد كبير من القرى الزراعية ـ الحرفية ـ التجارية. وهو مفتوح على الغرب بوادي الحمض الى مدينة الوجه على البحر الأحمر. وتقع يثرب على مشارفه الجنوبية، وخيبر وفدك على مشارفه الشرقية. وعندما نرجع بالذاكرة الى وضع اليهود قبل الرسالة، وحتى البدء بأخراجهم من يثرب، نجد انهم كانوا يتوضعون بقوة في هذه المنطقة من الحجاز التى لاتضاهيها في هذا القطر منطقة اخرى من حيث الاهمية الاقتصادية: كانت منطقة الزراعة والحرفة والتجارة، من يثرب، الى خيبر، ففدك، فوادي القرى فتيماء. وفي هذه الصورة نرى بوضوح مابعده وضوح الخطوة الستراتيجية الهائلة التي تحققت بأتمام استبدال «السلطة» اليهودية في هذه المنطقة الفائقة الاهمية، بالسلطة الاسلامية، بعد غزوة خيبر: بدأت هذه العملية العظيمة بخلاص يثرب للأسلام بخروج اليهود منها، وانتهت بخلاص هذه المنطقة الهامة للأسلام بغزوة خيبر. وهذا مايبين المغزى العظيم لمسيرة الحديبية، التي قلنا انها كانت «المحرض» لأنطلاق سلسلة الأحداث التي انتهت بتحطيم الوحدانية اليهودية المنحرفة الى خدمة الوثنية، ثم تحطيم شرك قريش

واصنامها كما سيأتي معنا فيما يلي من البحث. وهنا يلمع ويشرق في ذهننا المدى البعيد الذي يرمي اليه مطلع سورة الفتح التي اتت بمناسبة الحديبية وبعدها مباشرة كما سبق ورأينا:

**﴿ انا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا. ﴾**

( الفتح ١و٢ )

لقد صعدت قوة الاسلام لتصبح الاولى في الحجاز في تلك الايام الخالدة، حيث وثنية العرب تلفظ انفاسها الاخيرة بفقد شرك قريش موقعه الاول في الحجاز امام تلك القوة الصاعدة للاسلام.

## سقوط الوثنية في الجزيرة العربية

بعد انهيار حلف المشركين والموحدين اليهود المنحرفين الى نصرة الوثنية في غزوة الخندق، وتشتت احزابهم، وبعد خلاص يثرب للاسلام بابتعاد آخر تهديد يهودي لها من داخلها بطرد بني قريظة، اخذ صلى الله عليه وسلم بتوطيد الوضع الجديد لمدينته التي كانت تسير قدما في طريق تدمير الوثنية وحلفائها. وقد رأينا في البند السابق تدمير بعض هؤلاء الحلفاء، وهم يهود الحجاز. فبعد اقل من شهرين من هزيمة الاحزاب، واقل من شهر من اخراج بني قريظة، بدأ عليه السلام بارسال السرايا والخروج بالغزوات لرد عدوان او معاقبة فعل ارتكب ضد المسلمين. وانتهى الامر بسقوط الوثنية بازالة مجمع الهتها في مكة. ولنستعرض فيما يلي الخط العام لهذه المسيرة العظيمة:

اولاً: في العاشر من محرم من السنة السادسة هجرية ارسل النبي سرية لتأديب بني بكر بن كلاب النازلين في مكان على بعد سبع ليال من يثرب. كما خرج عليه السلام في ربيع الأول من هذه السنة إلى الرجيع للاقتصاص من بني لحيان قتلته عاصم بن ثابت واخوانه المار ذكرهم فيما سبق من البحث. وخرج كذلك لمطاردة عيينة بن حصن، احد المتحزبين يوم الخندق، لاستخلاص ماخذه من لقاح ( سن نوق

مرضعة لبونة ) في غارة له على الغابة قرب المدينة . وارسل سرية الى بني اسد لتأديبهم وردعهم للانتهاء من التعرض للمسلمين المارين بمنازلهم . وسرية اخرى لمنع اعراب ذي القصة ( على بعد اربعة وعشرين ميلا من يثرب ) من الاغارة على أنعام المسلمين بالهيفاء قرب المدينة . وسرية ايضا لبني سليم المتحزبين في غزوة الخندق . وسرية اخذت عيرا لقريش عائدة من الشام الى مكة . وكان في العير زوج ابنته زينب ابو العاص بن الربيع ، وكان من اسرى بدر ايضا ، وهو من كرام قريش واكثرهم مروءة ووفاء . وقد اسلم في هذه المرة ورد عليه النبي زوجه زينب بعقدها الاول . وفي جمادى الآخرة ارسل عليه السلام سرية للاغارة على بني ثعلبة على بعد ستة وثلاثين ميلا من يثرب على طريق العراق . وارسل في رجب سرية لتأديب بني فزارة المقيمين في وادي القرى★ لتعرضهم لقافلة للمسلمين عائدة من الشام ، فاحاط المسلمون بالعدو ( الذي مرت معنا سوابقه الكثيرة في العداء للمسلمين ) وقتلوا منه جمعا كبيرا . وفي شعبان ارسل عليه السلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة مقاتل من الصحابة لغزو بني كلب في دومة الجندل ( الجوف حاليا ) وقد اوصاهم قبل سفرهم بقوله الذي رواه البخاري :

**﴿ اغزوا جميعا في سبيل الله فقاتلنّ من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم . ﴾**

وكانت النتيجة ان اسلم رئيس القوم النصراني واسلم معه جمع من قومه بدون قتال . وتزوج الصحابي عبد الرحمن بن عوف ابنته بناء على امر النبي لتمكين صلات الود والمحبة مع قومها . وفي شعبان ارسل عليه السلام علي بن ابي طالب رضي الله عنه في مائة رجل لتأديب بني سعد بن بكر بفدك وكانوا يجمعون جمعهم بتحريض من يهود خيبر★ للتشويش على المسلمين .

نرى اذن ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يخلد ابدا بعد انتصاره العظيم في غزوة الخندق الى الراحة . فكان يعمل طوال الوقت كي يعزز هذا الانتصار بمتابعة الجهاد ضد اعداء الاسلام الذين كانوا منتشرين حول المدينة يحرضهم المشركون تارة ،

---

★ نلفت الانتباه هنا اننا نسرد احداثا وقعت قبل الحديبية ، وقبل غزوة خيبر .

ويستأجرهم اليهود تارة اخرى ( كما تستأجر اميركا واسرائيل بعض عربنا في جاهليتنا المعاصرة ) . ودام الحال على هذا المنوال طوال السنة السادسة هجرية تقريبا، الى ان حل الظرف المناسب للمسيرة العظمى الى الحديبية التي اشرنا اليها اعلاه، والتي افتتحت ايام الحسم الخالدة ضد اولئك المشركين واليهود، العقبتين الرئيسيتين في طريق الدعوة الاسلامية الى تهيئة الجزيرة العربية لتكون قاعدة الانطلاق الى انهاء الطور العبودي لجملة المجتمعات الانسانية .

ثانياً ـ قلنا ان النبي صلى الله عليه وسلم اخبر المسلمين كي يستعدوا للسير الى مكة لاداء العمرة . وخرج في ذي القعدة مع مايقرب من الف وخمسمائة من المهاجرين والانصار وبعض اعراب ماحول يثرب ( الذين تخلف بعضهم الآخر بحجة مشاغلهم باموالهم واهليهم، وكانوا في حقيقة الامر يظنون ان الرسول وصحبه لن يعودوا ابدا من هذه المسيرة لما استقر في قلوبهم من رهبة لقريش ) . وقد ولى النبي على مدينته عبد الله بن ام مكتوم، واخرج معه زوجه ام سلمة . واعلن على الناس انه لايأتي مكة محاربا، وانما مسالما معتمرا في شهر من اشهر الحرام هو ذو القعدة كما قلنا . فكان الهدى يتقدم مسيرته، كما كان صحابته لايحملون من السلاح الا السيوف في القراب . وكانت هذه المسيرة السلمية للعمرة ردا رائعا على حملة قريش بالاحزاب قبل عام لتهديم يثرب وقتل اهلها . كما ابرز شكلها ثقة النبي الكبيرة وايمانه العميق بنتائجها المحتملة، وبقدرته على توجيه الاحداث بها، الامر الذي نسميه اليوم : القدرة على المبادهة لتوجيه الاحداث وجهة مطلوبة . اما قريش فقد انتابها الغضب الشديد عندما بلغها خبر تحرك المسلمين واجمعت على منع الرسول بالقوة من دخول مكة لاداء العمرة . فارسلت خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس لتأخير المسيرة وقتا كافيا لاعداد مايلزم لمنعها بالقوة من دخول مكة . وحاولت لهذا الغرض جمع بعض الاحابيش على عجل ممن كانوا يعيشون حول مكة . وقد مر معنا انه عليه السلام غير طريقه كي يتجنب لقاء خالد، فلا تضيع اصداء مسيرته السلمية في ضجيج معارك تأخير كانت قريش تقصد بها ايضا تصعيد التأزم في الاشهر الحرم والقاء اللوم على المسلمين الذين تأخذ مسيرتهم بذلك عندئذ شكل الزحف الدموي على مكة . ومن جهة ثانية يشكل وصول النبي بمسيرته السلمية بسرعة الى مكة مفاجأة لقريش التي تكون استعداداتها لمنعه اولايقاع الاذى به غير تامة، وبالتالي يتاح له مجال واسع

لانهاء هذا الامر بافضل شكل يلائم خطته التي كنا اشرنا اليها انفا وهي : ان تكون هذه المسيرة فتحا مبينا، كما وصفها القرآن الكريم، وبابا الى الحسم مع اعداء دعوته. وقد دله رجل من قبيلة اسلم الى طريق وعرة، ولكنها مختصرة، اوصلت مسيرته بسرعة الى سهل يشرف على مكة من اسفلها. وقد امر النبي اصحابه بالنزول الى بئر الحديبية هناك. فاسقط في يد المشركين الذين فوجئوا بوجود المسلمين بقربهم بتلك السرعة. وقد حاولوا على مايبدو زعزعة موقفهم وارهابهم، فارسلوا خيالة خالد ( الذي كان قد عاد الى مكة عندما لم يجد احدا في طريقه عندما ذهب لاعتراض المسيرة ) فدارت حول معسكرهم، ولكنهم اخذوا منها بعض الاسرى. وقد اطلق عليه السلام سراح هؤلاء الاسرى ليؤكد بانه اتى مسالما معتمرا الى البيت الحرام. كما ارسلوا بعض المقاتلين يبلغ عددهم الثمانين في محاولة لاغتياله عليه السلام، فاسرهم اصحابه، واطلق سراحهم ايضا. وارسل عثمان بن عفان ليعلم قريشا انه اتى مسالما وليس مقاتلا، وانه يبغي العمرة فقط. ودخل رضي الله عنه مكة في جوار أبان بن سعيد الاموي، وبلغ ماامره النبي ان يبلغه فقالوا : « ان محمدا لايدخلها علينا عنوة ابدا » . ثم طلبوا منه ان يطوف بالبيت، فقال لااطوف ورسول الله ممنوع. ثم حبسوه. فشاع عند المسلمين انه قتل. فقال عليه السلام حينما سمع ذلك: « لانبرح حتى نناجزهم الحرب »* ودعا الناس للبيعة على القتال حتى الشهادة. وتمت البيعة تحت شجرة كان يستظل بها، ودعيت بعد ذلك شجرة الرضوان** وعندما بلغ هذا الامر قريشا، داخلها الخوف، وبدأت بالتفكير بالبحث عن مخرج من هذه الازمة بدون قتال :

**﴿ ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما . . . وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾**

---

* نور اليقين للخضري ص ٢١٣

** اجتثها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأفتتان الناس بها وخشيته من ان تتحول وثناً.

وانتهى الامر بان وصل الى معسكر المسلمين سهيل بن عمرو الذي حمل شروط قريش للخروج من الازمة بدون قتال، وهي :

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات .

٢ ـ من جاء المسلمين من قريش يردونه، ومن جاء قريشا من المسلمين لايلزمون برده .

٣ ـ يرجع النبي من غير عمرة هذا العام، ثم يأتي العام المقبل فيدخلها باصحابه بعد ان تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة ايام ليس مع اصحابه من السلاح الا السيف في القراب والقوس .

٤ ـ من اراد ان يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه، ومن اراد ان يدخل في عهد قريش دخل فيه .

وكان هذا ماينتظره ويعمل له صلى الله عليه وسلم، فقبل جميع هذه الشروط بدون تردد .

لقد كان النبي في موقف قوي يدل عليه ماظهر من المسلمين من ايمان عميق بوضعهم المتفوق في ذلك الموقف وبقدرتهم على الحسم مع قريش بالقوة، لانهم فاجأوها كما قلنا . الامر الذي سبب لاكثرهم، ومنهم بعض كبار الصحابة امثال عمر بن الخطاب، الغم والحزن الشديد من قبول شروط قريش، وخاصة منها الشرطين الثاني والثالث . وبلغ الحال بهم ان تجاهلوا امره عليه السلام ان يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم . فدخل على زوجه ام سلمة وقال لها : « هلك المسلمون امرتهم فلم يمتثلوا » . فقالت له رضي الله عنها : « يارسول الله اعذرهم، فقد حملت نفسك امرا عظيما في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون . ولكن اخرج وابدأهم بما تريد فاذا رأوك فعلت تبعوك » . فتقدم وفعل مااشارت به ام المؤمنين، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا . وعاد النبي بهم بعد ذلك الى المدينة* . وما كانت ثقة المسلمين بمقدرتهم على الحاق الهزيمة بالمشركين وتصفيتهم بهذه المناسبة عن غرور، وقد مرت معنا الآية الكريمة التي اكدت ثقتهم تلك :

---

* نور اليقين ص ٢١٥ ، ٢١٩ .

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . ﴾

( الفتح ٢٢ )

وكان النبي صلى الله عليه وسلم، الذي خطط للمسيرة العظيمة وقادها، اشد من صحابته ثقة بوضعه القوى في تلك اللحظات الخالدة، الا انه كان يريد، للعرب في البدء وللمسلمين من بعد، قبلة لاتقوم على « المجازر »، وخاصة تلك التي يمكن ان يكون جنده طرفا فيها. وقد مر قوله الذي يؤيد هذا الامر ونعيده هنا فيما يلي:

﴿ . . . والذي نفس محمد بيده لاتدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله الا اجبتهم اليها ﴾

فكان سعيه وحرصه انّ لاتكون هنالك فرصة للمشركين لدفع الاحداث بجاهليتهم الى مثل تلك الوصمة البشعة :

﴿ وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا ان يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا اليما . اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم التقوى وكانوا احق بها واهلها وكان الله بكل شيء عليما . ﴾

( الفتح ٢٤ - ٢٦ )

ومعنى ( لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم . . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا . . )، انه كان في مكة اناس مؤمنون يخالطون المشركين ولا يعرفهم جنود النبي في الحديبية . . . ولو تميزوا من اولئك المشركين لعذب الله الذين كفروا بان اذن بفتح مكة*. ويقول البراء رضي الله عنه : « تعدون انتم الفتح فتح مكة . وقد كان

* تفسير الجلالين.

فتح مكة فتحا . ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية . »

وكـان من الاسبـاب الاساسية التي دفعت قريش الى صلح الحديبية هو رغبتها بفتح طريق تجارتها الى الشام والعراق. وكان هذا ايضا سببا في انهيار البند الثاني من المعـاهـدة المـذكـورة. ويتلخص الامـر في ان الذين منعوا من الهجرة الى مدينة النبي بموجب البند المذكور، مثل ابي جندل بن سهيل وابي بصير عتبة بن اسيد الثقفي، كانـوا يهربـون الى مكـان يدعى سيف البحر، وهو على طريق تجارة مكة الى الشام. وقد تجمع منهم سبعون رجلا قطعوا هذا الطريق على قوافل قريش. فارسلت قريش الى الـرسـول عليـه السـلام تستغيث به لالغـاء ذلك البند وقبول من جاء منهم مسلما كمهـاجـر في مدينتـه. امـا فيما يخص النساء المسلمات فقد اتخذ عليه السلام منذ البدء موقفـا يخرجهن من الشـرط المـذكـور فلم يرد ايـة واحـدة منهن اتت اليه مهاجرة. وقد سكتت قريش ولم تعترض.

ويجـدر بنـا في هذه المسـيرة العظيمـة ( كما فيَ الاحـداث الاخـرى للدعـوة الاسـلاميـة ) ان نشـير الى امـور تبـدو عرضيـة على مافيهـا من جمال ووصف دقيق للحظـات حاسمـة، الا انهـا عند الوقوف عندها والتدقيق بمغزاها نجدها تشكل ردا حاسما على كذب مزاعم الحاقدين على هذه الامة التي حملت الرسالة وقوضت الطور العبـودي لجملة المجتمعـات الانسـانيـة بانهـا كانت خليـط « بدائيـين فقـراء ماديـا وروحيـا ». . . كانت خليطـا تنقصـه « فلسفـة اليـونـان ليحق له الارتقـاء الى مرتبة الامم ». ونحن هنـا لانقصـد ابـدا الانتقـاص من قدر اليونان وغيرهم ممن ساهم في دفع عجلة التقدم الانساني، وجهد في المساهمة ببناء صرح الحضارة الانسانية وانشاء روائع القيم المادية والروحية، وانما نريد فقط ان تأخذ الامور ترتيبها الواقعي في المكان والزمان. ثم ان اولئك الابطال هيأوا لعصر العلماء والفلاسفة العظام المسلمين. نقول اذن يجدر بنـا الاشـارة الى مايـلي من امـور تأتي في مقـدمتهـا عبقـريـة القائد العظيم المتـواضـع الـذي يبحث عن الجـوهر وليس عن « لقب » حاصل على كل حال بتأدية مهمته هذه :

١ ـ عنـد كتـابـة نص معـاهـدة الحـديبيـة املى النبي على علي بن ابي طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فاخذ سهيل بن عمرو مندوب المشركين بيده وقال : مانعرف الرحمن الرحيم اكتب في قضيتنا مانعرف . فقال عليه السلام : اكتب

باسمك اللهم، فكتب. ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله اهل مكة، فاعترض سهيل بن عمرو قائلا: لقد ظلمناك ان كنت حقا رسوله، اكتب في قضيتنا مانعرف. فقال النبي: اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد المطلب. فتلكأ علي رضي الله عنه في محو الجملة السابقة لكتابة الجديدة حسب رغبة سهيل، فاخذ عليه السلام الرق، بيده، ثم اعاده اليه وامره بكتابة الاخرى. ثم كتبت نسختان للمعاهدة: واحدة للمسلمين واخرى لقريش.

٢ ـ تقدير ام سلمة لدقة الموقف عندما دخل عليها النبي الانسان ( الذي يتركز اعجاز سيرته بعمق انسانيته اللامتناهي، وليس بخروجه من دائرة الانسان الى دائرة « العجائب »، التي يحاول « وثنيو المسلمين عبثا وضعه فيها ) نقول تقديرها رضي الله عنها لدقة الموقف عندما فوجئت بدخوله عليها غاضبا يائسا وقوله لها: « هلك المسلمون امرتهم فلم يمتثلوا »، وقد مر معنا خبر هذا قبلا. فرأت بنظرها الثاقب ان الجدل في مثل تلك الظروف، والاخذ والرد، طريق عقيم لا يؤدي الى ردم الهوة التي قامت بين القائد وجنده، بل يوسعها ويعمقها، بالاضافة الى توليده شقوقا اضافية الى جانبها في جبهة المسلمين. وكان هذا من جملة مقاصد المشركين ايضا بشروطهم تلك. فرأت رضي الله عنها المخرج الصائب في رابطة القلب والايمان التي تربط المسلمين بنبيهم عليه السلام، وذلك ريثما تنجلي الامور فتعود للفكر وظيفته في تدقيق ماهو صواب وما هو خطأ. فقالت: « . . اخرج يارسول الله وابدأهم بما تريد فاذا رأوك فعلت تبعوك . ». لقد كانت نموذج المرأة العربية التي احتضنت اولئك الذين حملوا رسالة دفع العالم الى الافضل.

٣ ـ ان موقف سهيل بن عمرو، كمندوب يؤدي مهمة اوكلت اليه، يذكرنا بالدبلوماسيين الماهرين في هذا العصر، عندما نراه ينتبه ويدقق في مدلول كل كلمة تكتب في نص المعاهدة. لقد كان خير « محام » عن مصالح قومه في « لجنة صياغة » نص المعاهدة.

٤ ـ ان البدائيين لايكتبون معاهداتهم فيما بينهم، وانما يذهبون الى وثن: شجرة او صخرة اوماشابه، فيحلفون الايمان عنده ويتعهدون باحترام اتفاق ساذج يقع فيما بينهم. وتثبيت الحقوق والاتفاقات بالكتابة عادة مألوفة عند العرب. وقد رأينا ان الاسلام لا يقرها فقط، بل يأمر بها، كما هو الحال في تثبيت الحقوق عند الكاتب

بالعدل، المار ذكره فيما سبق من البحث. ونذكر كذلك العهد الشهير للمشركين بمقاطعة بني هاشم وتعليق هذا العهد على جدار الكعبة الخ . . وبعد، الم تكن اول كلمة، في بناء الاسلام، كلمة اقرأ ؟ . .

ان قريش التي وضعت بنود صلح الحديبية الاربعة، ما كان امامها مخرج من ازمتها: من وجود النبي على ابواب مكة، وقبل هذا من قطع الطريق على تجارتها مع الشام والعراق بالقوة الاسلامية القائمة على هذا الطريق في يثرب، نقول ماكان لها مخرج الا بهذا النص للمعاهدة، الذي يعترف مع ذلك بقيام هذه القوة التي تحارب وتسالم وتبسط حمايتها على من يدخل في عهدها، كما ورد في البندين الاول والرابع. وعلى هذا الاساس تأخذ كتب النبي، التي ارسلت مباشرة بعد الحديبية، الى ملوك وامراء منطقة البحر الابيض المتوسط ( بتعريفها المار اعلاه بحيث تشمل امبراطوريتي الفرس والروم ) بعدا سياسيا هاما : كانت تتضمن دعوة من قوة تامة التكوين والمسؤولية لاقامة نظام عالمي جديد، والانتهاء من النظام القديم البالي المعادي للانسان. وقد استجاب بعضهم للدعوة، وهم من العرب كالمنذر بن ساوى ملك البحرين وابني الجلندي ملكي عمان، وكذلك ملك الحبشة الذي اسلم دون قومه وصلى عليه النبي صلاة الغائب عند موته. ورد بعضهم ردا جميلا كقيصر والمقوقس. اما كسرى فقد مزق كتاب النبي، كما ان شرحبيل بن عمرو الغساني امير مؤتة تعرض للحارث بن عمير الازدي حامل كتاب النبي الى امير بصرى وقتله. وقد حزن عليه السلام حزنا شديدا لذلك، وكان هذا الفعل الغادر من اسباب غزوة مؤتة .

ثم اتت السنة السابعة هجرية وقام عليه السلام كما رأينا باتمام اسقاط الكيان اليهودي في الحجاز بغزوة خيبر ومناطق اليهود الاخرى في فدك وتيماء ووادي القرى .

ثالثاً ـ وانقضى العام على صلح الحديبية، فخرج عليه السلام لقضاء العمرة مع كل من بقي حيا من الذين قاموا معه بمسيرة الحديبية، كما نصت عليه المعاهدة بينه وبين قريش. وهنالك خلاف في دلالة اسمها الذي هو « عمرة القضاء ». فبعض الأئمة، ومنهم الامام الشافعي يقول: سميت كذلك لانه صلى الله عليه وسلم اتم بها ( استوفى بها ) ماقضى له عهد الحديبية. وبعضهم الآخر ومنهم ابو حنيفة يعتبرها قضاء لتلك العمرة التي لم تتم بمنع قريش، ويبني على هذا الامر حكما شرعيا مآله: ان من صد عن البيت فعليه القضاء. والواقع، انه كان على النبي ان يتمها في

التاريخ ذاته ( بعد عام من الحديبية ) ، ليس لانه بهذا كان يقوم بقضاء عن عبادة فسدت بسبب صد قريش ، اذ لو كان الامر كذلك لصح قضاء هذه العبادة في اي تاريخ آخر ، وانما ليستوفي لدعوته ، من الناحية السياسية ، وتجاه العرب ، وامام التاريخ الانساني ، حقها الذي نص عليه صلح الحديبيةوحدد تاريخه . فهي تدخل في مجموعة الاشكال العديدة للجهاد من اجل هذه الدعوة التي استهدفت خلاص الانسان من الضلال والقهر .

وسار عليه السلام باصحابه يتقدمهم مائة فارس وبالسلاح التام . وقد اجاب على تساؤل بعض اصحابه بقوله : « لاندخل الحرم بهذا السلاح ولكن يكون قريبا منا ، فان هاجنا هائج فزعنا له » . كما اجاب القرشيين الذين اتوا وقالوا له : « والله يامحمد ماعرفت الغدر صغيرا ولا كبيرا ، وانا لم نحدث حدثا! فقال : « انا لاندخل الحرم بالسلاح » . وترك عليه السلام مازاد من السلاح على مانصت عليه الحديبية حول ثنية كداء ، وهو مكان معروف من طريق جدة ، بحراسة الفرسان . ودخل على راحلته باصحابه المتوشحين سيوفهم مكة من هذه الثنية ، وامامه عبد الله بن رواحة يقود الراحلة وهو يقول : «لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، واعز جنده ، وهزم الاحزاب وحده» . وطاف عليه السلام بالبيت وهو على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وامر اصحابه ان يسرعوا ثلاثة اشواط اظهارا للقوة ، لأن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب . وقال عليه السلام : رحم الله امرأ اراهم من نفسه قوة . واتم المسلمون طوافهم بالبيت ★ ، وكان الفرسان حرس الاسلحة يستبدلون بغيرهم ليقوموا بالعمرة بدورهم . وكانت العمرة مظاهرة ( امام من بقي من اهل مكة ) زاد من روعتها صد المشركين مثلها في الحديبية قبل عام ، وانتظار الناس لها طوال هذا العام .

وفي شهر صفر من السنة الثامنة وفد على النبي القائد الكبير خالد بن الوليد مع رفيقيه عمرو بن العاص وعثمان بن ابي طلحة العبدري ، الذي مر ذكره في الباب الاول من بحثنا ، وهو سادن الكعبة ، واعلن هؤلاء اسلامهم . فسر بهم النبي سرورا كبيرا لموقعهم الهام من قريش ، ولمزاياهم الكبيرة التي كان يقدرها فيهم عليه

---

★ نور اليقين للخضري ص ٢٣٦ .

السلام . فكان يوم اسلامهم نصراً كبيراً للاسلام ، ويوم حزن شديد للمشركين الذين اقتربت نهايتهم .

رابعاً ـ وتم ارسال عدد من السرايا في هذه السنة قبل فتح مكة ، لتأديب بعض من اعتدوا على المسلمين . وكان من اهمها غزوة مؤتة ، وقد سميت كذلك مع ان النبي لم يخرج فيها لضخامة جيشها الذي كان تعداده ثلاثة آلاف مقاتل . وكانت في جمادى الاول . ومؤتة في الاردن على مرحلتين من بيت المقدس الى جنوب شرق البحر الميت ، قريبة من الكرك . وقد رأى عليه السلام صعوبة الحملة وخطورتها فسمى لها سلفا ثلاثة قادة يخلف الواحد الذي سبقه منهم عند اصابته . وكان الاول زيد بن حارثة ويليه جعفر بن ابي طالب عند اصابته ، ثم عبد الله بن رواحة عند اصابة جعفر . وكان في الجيش خالد بن الوليد . وقد اولى عليه السلام هذه الحملة اهتمامه الشديد ، لانها كانت الاولى بحجمها تخرج من الجزيرة العربية لتقابل نصارى الشام ، وسببها الاقتصاص من قتلة رسوله الحارث بن عمير الازدي الى امير بصرى الغساني . فخرج لذلك لوداعها مع اهل المدينة كلهم ، ولعل هذا هو الذي جعل رواة اخبارها من المسلمين يطلقون عليها تسمية الغزوة . واوصى عليه السلام جندها بقوله* : « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون رجالا في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صبيا ولا شيخا فانيا ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء » .

وعندما وصل جيش المسلمين معان في الاردن بلغهم ان الروم جمعوا لهم جموعا كبيرة في مؤاب من ارض البلقاء تضم الآلاف من العرب المتنصرين . وعقد قادة الجيش مؤتمرا تدارسوا فيه الموقف العسكري . فاقترح بعضهم ابلاغ النبي بالامر لارسال نجدة اليهم ، اولامرهم بالعودة . الا انهم قرروا في النتيجة ملاقاة العدو بناء على اقتراح عبد الله بن رواحة الذي قاله لهم : « ياقوم والله ان الذي تكرهون هو الذي خرجتم له ـ خرجتم تطلبون الشهادة ونحن مانقاتل بقوة ولا بكثرة مانقاتل الا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به ، فانما هي احدى الحسنيين اما الظهور او الشهادة »** .

---

* المرجع السابق ص ٢٣٩ .

** المرجع السابق .

وانطلق جيش المسلمين في اتجاه الشمال الى مؤتة حيث قتل الحارث بن عمير ، واتخذ معسكره فيها . وكانت تعبئته عادية على : قلب ومقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة . وقاد زيد القلب بنفسه ، وولى الميمنة قطبة بن قتادة من بني عذرة ، وعلى الميسرة عبابة بن مالك . اما الروم ، وكانت غالبيتهم من عرب الغساسنة والعرب المتنصرين الآخرين ، فكان مقرهم على مايبدو في المشيرفة ، وهي قرية بين الكرك ومؤتة على بعد يقرب من الخمسة كيلومترات من هذه الأخيرة وكان مالك بن زافلة الغساني قائدهم . وكانت ساحة القتال هنا على خط ثغور الامبراطورية الرومية المطلة على الصحراء الشامية . والكرك كبصرى من اهم الثغور التي كانت تشكل سلسلة من القلاع الحصينة .

كان العدو اذن في موقف ملائم له : كان يستند الى المنطقة الدفاعية المهيأة بشكل دائم لصد الهجمات العدوة على الامبراطورية الرومية ، وكان تعداده بين عشرة وخمسة عشر الف جندي ، اي بين ثلاثة وخمسة اضعاف قوة المسلمين البعيدين جدا عن قواعدهم . فكانت معركة تجلى فيها اثر الايمان والتصميم في الجندي المسلم :

ـ اقدم المسلمون على مواجهة اعدائهم المتفوقين ، مع أنه كان باستطاعتهم عدم قبول المعركة والانسحاب بكل سهولة منذ أن كانوا في معان ، حيث تجلى لهم الموقف بكل خطورته .

ـ لم يحدث أي انقطاع في إدارة دفة القتال عند تكرار استشهاد القادة الواحد تلو الآخر .

ـ لم يحافظ الجيش على تماسكه فقط بعد القتال المرير الذي واجه به عدوا متفوقاً تفوقاً ساحقاً ، بل تمكن ايضاً من القيام بهجمات مضادة مؤثرة ، وبتنفيذ مناورات واسعة بكل دقة وانتظام ، انقذته من براثن عدوه القوي .

لقد كانت مؤتة تجربة فذة مر بها المسلمون ، تعادل في أيامنا تجربة القاء لواء مظليين في اعماق الأرض العدوة بعيداً عن قواعده نحو الف كيلومتر ، وعودة هذا اللواء (عن طريق البر) سالماً بعد أن خاض معركة كبرى ضد قوى متفوقة تفوقاً ساحقاً . وقد اعطتهم درساً افادهم فائدة كبيرة في حملاتهم المقبلة على الامبراطورية الرومية . وكان لابد منها كي يستطلعوا قيمة دفاعات هذه الامبراطورية على تخومها ،

وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما يلي من البحث. أما فيما يخص عرب الحجاز والجزيرة العربية، فإنهم رأوا في مؤتة صعود الدعوة الاسلامية إلى سوية الاشتباك مع «بني الأصفر»، مع الامبراطورية الرومية.

وقع الاشتباك بين الفريقين على التخوم الشرقية لمؤتة، وكان ثقل القتال باهظاً على المسلمين، فاستشهد، كما قلنا، قادتهم الذين عينهم النبي الواحد تلو الآخر وهم يهزجون. فكان جعفر بن أبي طالب يقول:

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة انسابها
علي إذ لاقيتها ضرابها

وكان ابن رواحة يقول:

اقسمت يانفس لتنزلنه طائعة أو لتكرهنه
ان اجلب الناس وشدوا الرنة مالي اراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة هل انت الا نطفة في شنة

ومعنى (ان اجلب الناس وشدوا الرنة)، إذا اتوا من كل فج وشدوا اوتار قسيهم الرنانة. والشِّنَّةُ تعني القربة أو جلد الانسان بالاحرى.

وبعد استشهاد ابن رواحة اخذ الراية ثابت بن اقرم من بني عجلان. ولابد أنه احتفظ بها إلى ان تحاجز الفريقان في المساء. ذلك لأنه قال للناس: اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: انت، فقال: ماأنا بفاعل. فمثل هذا الحوار لايكون في معمعان القتال، ولابد من أنه جرى بعد عودة الطرفين، كل طرف إلى قواعده. وقد اتفق الناس على خالد بن الوليد. فلم يترك ثانية تضيع. فالانسحاب يعرض الجيش لملاحقة العدو ولتخطفه من اطرافه من قبل المتجرئين عليه في طريق تراجعه. وقد قال الصحابي عقبة بن عامر في هذا الظرف: ياقوم، يقتل الانسان مقبلاً خير من ان يقتل مدبراً. لذلك قرر خالد ان لايكون الانسحاب إلا بعد شل العدو وتجميده بضربة صاعقة في إطار عملية خداع ومناورة واسعة. فامر بتغيير تعبئة الجيش، واستبدل الميمنة بالميسرة، وهذه بالميمنة. وفعل مثله بالمقدمة والمؤخرة. وامر بضع مئات بالاسراع تحت جنح الظلام، وبصمت تام، بالذهاب بعداً كافياً في الصحراء في اتجاه الحجاز، ثم بالعودة على سرايا متتابعة، توقد النيران والمشاعل، بحيث تشاهد

من بعيد من قبل العدو، ويكبر جندها ويهزجون، كما يستقبلون بالتكبير والاهازيج عند وصول كل سرية إلى معسكر المسلمين من قبل جند المعسكر في مؤتة. وأن يكون وصول السريا الأخيرة في النهار، اثناء احتدام القتال، فتسير هذه السرايا مسرعة وهي تثير الغبار، وتدخل ميدان القتال مباشرة، في امكنة لم يكن جندها فيها في اليوم السابق كي لا يتعرف عليهم العدو، وكأنها نجدات آتية من الحجاز. وقد تمت هذه المناورة الخادعة بدقة ونظام. فأمر خالد في الصباح بالهجوم العام على العدو الذي كان تحت تأثير ماشهده وسمعه في الليلة السابقة على طريق الحجاز وفي معسكر المسلمين فظن أن النجدات تتدفق عليهم بدون انقطاع وانها مستمرة إذ مازال هنالك محاربون «جدد» يأتون من جهة الحجاز ويدخلون معمعان القتال مباشرة عند وصولهم. فدب الخوف في صفوفه وتخاذل وتراجع أمام الهجوم العاصف للمسلمين الذين أوقعوا خسائر كبيرة فيه. وتقول بعض كتب السيرة إن المعركة دامت سبعة أيام على هذا المنوال. ويقول محللون حديثون ان التشتت اصاب جيش المسلمين عقب استشهاد عبد الله بن رواحة وقبل تولي خالد القيادة و«دبت الفوضى في صفوفه وهرب بعضهم واستمر البعض الآخر في المقاومة بشكل غير منظم بمجموعات صغيرة تتألف من شخصين أو ثلاثة إلخ. .*. من الواضح أن الخدعة لايمكن دوامها ذلك الاسبوع الطويل دون أن يكشفها العدو، والمسلمون في أرض يحيط بهم الاعداء من كل جهة يراقبونهم. كما أنه لو كان ذلك التشتت قد وقع فعلاً في تلك الأرض في الجيش الاسلامي، لما عاد من هذا الجيش احد إلى المدينة. والذي حدث هو ان بعض «التشتت» وقع في ذهن بعض متتبعي الأخبار غير المنسقة لهذه الملحمة والمعقول أن خالد بن الوليد، امر في المساء، في نهاية هجومه الصاعق، بالانسحاب السريع بصمت وتحت جنح الظلام. وفي الصباح عندما خرج الروم واذنابهم من العرب إلى الميدان وجدوه خالياً، كما تبينوا بعدها أن معسكر المسلمين خال ايضاً. فظنوا ان في الأمر خدعة كبيرة يقوم بها المسلمون لجرهم بعيداً (عن منطقتهم المشار إلى مواصفاتها اعلاه) إلى الصحراء حيث يوقعون بهم بما أتاهم من «الامدادات» التي توهموا ورودها إليهم. وعندما استفاقوا على ماجرى في الواقع، وتبينوا أن الأمر خدعة، كان خالد بن الوليد قد ابتعد بعداً كافياً بقوات المسلمين في اتجاه الحجاز.

وبوصول جيش مؤتة، خرج صلى الله عليه وسلم بأهل يثرب لاستقباله

خارج المدينة. وقد حاول بعض الناس أن يعيبوا هؤلاء العائدين، فحثوا عليهم التراب ونعتوهم بالفُرَّار. ولكن النبي، الذي كان قد تلقى تقريراً كاملاً عما جرى، واعجب اعجاباً شديداً بما فعله خالد، نهاهم عن هذا الفعل، وقال لهم: «بل هم الكُرَّار». ولقب خالداً بلقب: «سيف الله في أرضه».

خامساً ـ وفي جمادى الآخر، بعد مؤتة باقل من شهر ارسل عليه السلام عمرو بن العاص إلى ديار قضاعة، في ذات السلاسل الواقعة فيما وراء وادي القرى، على رأس سرية من ثلاثمائة رجل، لتشتيت جمع لها يستعد للاغارة على يثرب. وفي طريقه امده بابي عبيدة بن الجراح ومعه مائتي رجل فيهم كبار الصحابة من امثال ابي بكر وعمر. وفي هذه السرية تشدد القائد بحزم في الزام جنده باتباع قواعد الحرب الصحيحة، التي منها مثلاً منعه اشعال النيران في الليل، كي لايفضح عدد جنده ومكانهم، على الرغم من البرد الشديد في ذلك الفصل. وقد شكاه بعضهم إلى النبي بعد عودتهم من تشتيت شمل العدو، فحكم له عليه السلام واثنى عليه.

وفي رجب، ارسل عليه السلام ابا عبيدة بن الجراح، إلى سيف البحر، على البحر الأحمر، لتشتيت قبيلة جهينة التي كانت تقطع الطريق. فتفرقت هذه القبيلة عندما احست بقدوم خيل النبي. وقد عانت تلك السرية التي كان تعدادها ثلاثمائة مجاهد الجوع لنفاذ زادها. ولكن ذلك لم يمنعها من تأدية مهمتها على اكمل وجه.

سادساً ـ وبعد قضاء العمرة، ولقاء الروم في مؤتة، برزت الدعوة الاسلامية كأول قوة في الجزيرة العربية، واصبح سقوط الشرك في مكة مسألة زمن. إلا أن النبي كان يتقيد بصرامة وحزم بنصوص معاهدة الحديبية، مادام الطرف الآخر يتقيد بها. وكان يمنع اصحابه ومن يلوذ به من تعدي حدودها. وقد اتى في القرآن الكريم مايؤيد ويفرض هذا الموقف على المؤمنين:

**﴿يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود. . ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**

(المائدة ١ و ٢)

ومن جهة اخرى، فإن الشرك لايسقط في الجزيرة العربية إلا بسقوطه في مكة

أولاً، والا بتطهير الكعبة من الاصنام والاوثان واعادتها بيتاً للتوحيد. وكان عرب الجزيرة يدركون هذا الأمر تماماً قبل فتح مكة. وقد ورد في الجامع الصحيح للبخارى عن عمرو بن سلمة أنه قال:

«... وكانت العرب تقول اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق...»* ووقع الشرك بما كان مأمولاً ان يقع فيه. وقد ورد في كتب السيرة روايات عدة تتفق كلها في جوهر الاسباب التي أدت إلى سقوط معاهدة الحديبية ونقضها من قبل قريش. فيروي مثلاً أن بكرياً وقف يهجو النبي على مسمع من خزاعي، فقام إليه هذا ولطمه. فحرك هذا كوامن الحقد بين القبيلتين، وتذكر البكريون ثاراتهم فذهبوا إلى قريش واستعانوا بها، فاعانتهم سراً بالعدة والرجال. ثم قاموا بغارة على خزاعة وقتلوا منها عشرين رجلاً. ونعتقد أن هذا الأمر ماكان وليد الصدفة، ولانتيجة لذلك السبب الفردي الذي هو الشجار بين رجلين من القبيلتين، وإنما كان من تدبير قريش في الأصل. فصعود نجم الدعوة الاسلامية باستمرار كان يصيب المشركين في قريش بضيق وغم شديدين.

فكانوا يرون هبوط مكانتهم يتفاقم كل يوم. واعتقدوا أن بإمكانهم الاستفادة من صلح الحديبية لتحييد المسلمين (الذين لم يعد باستطاعتهم محاربتهم بعد ذلك التنامي لقوتهم، الذي ظهر على الأخص في مؤتة وخيبر) ثم العمل من وراء ستار في البدء، لكسب المواقع على حساب يثرب الواحد بعد الآخر فإذا استمر المسلمون بالسكوت حفاظاً على المعاهدة انتقلوا إلى طور آخر اكثر نكاية بهم وأوضح امام الملأ. وهكذا إلى أن يعزلوا الدعوة الاسلامية ويستعيدوا مافقدوه. لذلك دبروا ذلك الاستفزاز الكبير، من أوله إلى آخره: من مشهد الشجار الأنف الذكر بين البكرى والخزاعي إلى العدوان الغادر على خزاعة حلفاء النبي، وهم يتسترون وراء بني بكر، محاولين اعطاء الحادث شكل نزاع قبلي ناشىء عن احقاد وثارات قديمة. وكتتمة لهذه العملية المُدبرة حاولوا الظهور بمظهر «المسالمين الكرماء» وتهدئة المسلمين بعرض تمديد لمعاهدة الصلح، مع تجاهلهم لذلك العدوان وكأنه حادث تافه لايستحق اهتمامهم. وكانوا بهذا يعرضون ضمناً نوعاً من «الصداقة المتعالية» والكاذبة في النتيجة كتعويض

---

* التجريد الصريح للجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدي ص ٩٢.

لما حدث. وفي هذا مافيه من اذلال للمسلمين وتشويه لسمعتهم امام العرب فيما لو قبلوه ووقعوا فيه. فإذا ماانقضت الأزمة بالشكل الذي تأمله قريش، عاود قادتها الكرة بعدوان آخر، أودسيسة اخرى، وهكذا إلى أن يفقد الاسلام كل ماجمعه من رصيد امام العرب. وقد اتى ابوسفيان بالفعل إلى يثرب لأداء هذه المهمة. ولكن النبي عليه السلام قابله ببرود شديد، ورمى في وجهه الشرك تلك «الصداقة المتعالية»، وسأل أبا سفيان سؤال العارف المتجاهل: هل كان من حدث؟ فقال ابوسفيان: لا، فقال عليه السلام: فنحن على مدتنا وصلحنا. وهذا يعني رفضاً لتمديد الصلح الذي اقترحه ابوسفيان، على أن لايخل، بطبيعة الحال به أحد الطرفين. ولما كانت قريش قد نقضته بفعلها الغادر، فإن رفض تجديده من قبل النبي (رفض تمديده) كان يعني سقوطه. وهرع ابوسفيان إلى كبار الصحابة من المهاجرين يطلب اليهم التدخل، فلم يجد إلا الصد وإلا قولاً واحداً: جوارنا جوار رسول الله. وهذا يعني أن الأمر مدروس ومبتوت فيه وليس هنالك من قول سوى قول القائد. حتى ابنته، ام المؤمنين ام حبيبة، طوت عنه الفراش ونعتته بالمشرك النجس عندما اتاها آملاً عونها في مهمته. وما كان لها ان تفعل هذا في غير هذا الموقف، وهي العربية الكريمة المضيافة، وهو ابوها الذي بارك زواجها من النبي بقوله: «ذلك الفحل لايقرع انفه»، وذلك عندما رد على من عابه من المشركين وقال له: «مثلك تنكح نساؤه بدون علمه؟!...» نقول ماكان لها أن تغلق الباب في وجه ابيها لولا ما كان يحز في نفسها من ألم وغضب من «نجاسة الذي دبر ذلك العدوان الغادر».

وكانت خزاعة قد ارسلت وفداً برآسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر النبي بذلك العدوان الذي وقع عليهم. فقال لهم عليه السلام بعد وقوفه على تفاصيل الأمر منهم: «والله لامنعكم مما امنع نفسي منه». «وتجهز للسفر، وامر اصحابه بذلك، واخبر الصديق بالوجهة فقال له:

يارسول الله اليس بينك وبين قريش عهد. قال نعم، ولكن غدروا ونقضوا. ثم استنفر عليه السلام الاعراب حول المدينة وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة.. وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كي لايشيع الأمر، فتعلم قريش فتستعد للحرب، والرسول عليه السلام لايريد أن يقيم حرباً

بمكـة، بل يريـد انقيـاد اهلهـا مع عدم المساس بحرمتها*«ولكننا نميل إلى أن قريشاً ادركت جيداً (بعد عودة ابي سفيان من سفارته إلى يثرب فاشلاً) أن حالة الحرب قد عادت بينهـا وبـين المسلمـين. ويؤيـد هذا الـرأي غضبهـا عليه واتهامها له بأنه خانها وانحاز إلى ابن عمه واسلم. فكان رده أن تنسك عند الأوثان ليكذب هذا الظن. كما أنهـا اخـذت بالاستعـداد لمجـابهـة النبي، فدعت الاعـراب والاحابيش حول مكة، واتصلت بثقيف في الطائف وبهوازن وغيرهم من المشركين. أما الأمر الذي كان عليه السلام يريد أن يخفيه عن قريش فهو: مدى استعداداته ومقدار تقدمها. لم يكن يخطر ببال المشركين أن هجومه وشيك، لاسيما في رمضان حيث يكون المسلمون صائمين. كما أن تقديرهم للقوات التي يمكن أن يهاجم بها النبي كان اقل بكثير مما وقع، وربما قدروا أنه لن يأتيهم بأكثر من ثلاثة أو أربعة آلاف مقاتل، وهو مايقارب حجم جيش المسلمين في الخندق ومؤتة وخيبر.

وقد خرج عليه السلام بعشرة آلاف مقاتل في منتصف شهر رمضان بعد أن ولى على يثـرب ابن ام مكتـوم، وفي روايـة كلثوم بن حصيف الغفاري، واتجه نحومكة. وفي الابراء قابل ابن عمه ابو سفيان بن الحارث، وشقيق زوجه ام سلمة عبد الله بن ابي اميـة بن المغـيرة، وكـانا من اشد الناس عداء له، وكانا آتيين مسلمين ومهاجرين إليـه. كما التقى بعمـه العبـاس مهـاجـراً إليه مع عياله. فطلب منه ترك عياله يتمون طريقهم إلى يثـرب وان يعـود معـه. ووجـد عليـه السـلام أن الصيام اثر في المسلمين وانهكهم، فافطـر في الكـديـد قرب عسفـان وافطـروا معـه. ثم وصل الجيش إلى مر الظهران قرب مكة، وفوجئت قريش بذلك مفاجأة تامة، فهي كما قلنا ماكانت تتوقع خروجـه إليهـا بهذه السـرعة، وفوجئت بوصوله قربها. وارسلت ابا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء لاستطلاع مدى تقدمه.

وكـان عليـه السـلام قد امـر باشعـال عشرة آلاف نار. فلما شاهدها ابو سفيان ورفيقـاه عنـد وصـولهـما إلى مر الظهـران ليلاً دهشوا ولم يخطر ببالهم أن مايشاهدونه هو جيش النبي حتى القت عليهم القبض احـدى الـدوريـات من حرسـه واخذتهم إلى الـرسـول عليه السلام. وهذا بدلالة الخبر المتفق عليه من قبل اصحاب السيرة وهو:

---

* نور اليقين للخضري ص ٢٤٤.

«أن أبا سفيان ورفيقيه ساروا حتى أتوا مر الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال ابو سفيان: ماهذه لكأنها نيران عرفة؟ فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال ابو سفيان: عمرو اقل من ذلك»*.

واسلم ابو سفيان، وامر النبي عمه العباس أن يأخذه ليقف في خطم الجبل لينظر إلى كتائب المسلمين في صبيحة اليوم التالي تمر من هناك في طريقها لدخول مكة. لقد كان عرضاً توج عشرين عاماً من الجهاد المرير بصعوباته، العظيم بمجده وخلوده. وتتالت فيه أفواج المسلمين، وكان سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار ينادي: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة (أو الكعبة في رواية أخرى). فرد ابو سفيان: حبذا يوم الذّمار (أي الحمى والمنعة). وعندما بلغ النبي ذلك قال: «كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة». وهنا لابد لنا من أن نعود بالذاكرة إلى خبر كنا أوردناه في الباب الأول من بحثنا عندما قال عليه السلام لعثمان بن طلحة العبدري سادن الكعبة: «كأنك بمفتاحها بيدي أضعه حيث شئت «فقال عثمان: لقد ذلت يومئذ قريش وقلت، فأجابه النبي «بل كثرت وعزت». وهاهو اليوم الذي اصبح فيه مفتاح الكعبة بيده قد اتى، وسيكون فيه عز قريش كما سبق ووعد: بطهارة التوحيد وانسانيته، وليس بنجاسة الشرك وعبوديته، وهو العز الحقيقي المبني على محبة الناس واحترامهم. . في كل أنحاء الدنيا اينما وجد الاسلام. لذلك كان كلام سعد بن عبادة غير صحيح .اذ هنالك بون شاسع بين هدم الشرك والوثنية (ومعه هدم كل مايتجسد به الشرك والوثنية من انسان يمتزج معهما بحيث يستحيل فصله عنهما، كابي جهل مثلاً، الذي تقوم صورته بمختلف الأشكال والألوان، على مر العصور والتاريخ) وبين «هدم» الانسان في اطار ارهاب وحشي بحجة دفاع كاذب أو اعمى عن الانسانية، حتى يصل الأمر إلى هدم وقتل رفاق الجهاد والدرب في انحرافات تسبب الهلاك للناس. ان تعاليم الاسلام وسنته هي كما علمنا اياها المعلم عليه السلام: عندما يزول نظام القهر وتتقوض اسسه، يصبح معظم الناس «طلقاء» من شباك ذلك النظام، ولاموجب لملاحقة إلا من لايمكن فصله عن النظام البائد. والثورة لهدم الشرك وتحطيم الوثنية هي من أجل الانسان وليس العكس، لأن الله غني عن

* المرجع السابق ص ٢٤٧. خبر عن البخاري ورد في التجريد الصريح الآنف الذكر ص ٩١

العـالمـين. لذلـك وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم يرسل بدون تأخير عندما سمح نداء سعـد بن عبـادة من يأخـذ رايـة الانصـار منـه، عليـا أو الـزبير بين العوام، كي لاتتدنس القبلة ومدينتها بالدماء.

وامـر عليـه السـلام أن ترفع رايته على جبل مشرف على مكة اسمه الحجون. وقـد وجـه خالـد بن الـوليد بقسم من الجيش ليدخل مكة من اسفلها في كدى (كدى كجمـع رابيـة) بينـما قاد هو بنفسه القسم الآخر من الجيش ليدخل من اعلاها في كداء (كثناء)* وارسـل من ينـادي في مكة قبل البدء بعملية دخولها بإعلان «حظر التجول» اثنـاء العمليـة، كي لايقـع كل ما من شأنه أن يسبب اهراق الدماء. ويتلخص الأمر في: أن من دخل داره واغلق بابه فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار ام هانىء بنت ابي طالب فهو آمن. واستثنى من الأمـان من عظمت جرائمهم، ولكنـه في النهاية عفى عن معظمهم، لاسيما منهم كل من اسـاء إليـه شخصيـاً. ثم ابتدأت اشد عمليات التاريخ، هداية وانسانية وحسماً، بدأت عمليـة دخـول مكـة لتكون قبلة وناظم التآخي والعدل والتقدم لبني الانسان، قبلة النورّ تشتت الظلام الأسود من العقول والقلوب في كل الناس، قبلة الخلاص من قهر الانسان للانسان، فلا يجوز لمن استقبلها أن يقبل بغير هذه المعاني لها وان لايجاهد في سبيلهـا بالمـال وبـالنفس. وكان من انتصاراته المعجزة (التي خطط لها عليه السلام بدقـة لامثيـل لها. وجـاهد من أجل تحقيقها ضد الأعداء وضد الذات مر الجهاد) تمام عملية دخول مكة بشكل سلمي، إلا من مقاومة قصيرة أمام خالد بن الوليد، قادها عكـرمـة بن ابي جهـل، وقـد انتهت بسـرعـة وفر مفتعلوها. وكان عليه السلام على راحلته، يردفه اسامة بن زيد، وهو منحن على الرحل تكاد جبهته تمسه من التواضع.

وطهـرت الكعبـة، والقي بأصنـامها واوثانها في مزبلة التاريخ، ونودي بالتوحيد من على سطحهـا، نادى به بلال رضي الله عنـه. وفي اليـوم التـالي اتت قريش الى الكعبة، فقال لهم صلى الله عليه وسلم*:

---

* بعض الـروايـات تروي الخبر بعكس هذا فتقـول أن النبي دخـل من اسفـل مكـة بينـما دخلها خالـد من اعلاها. انظر التجريد الصريح المار ذكره ص ٩٣، النص والحاشية.

* نور اليقين للخضري ص ٢٤٩.

«يـامعشـر قريش، ماتظنـون اني فاعـل بكم. قالوا: خيرا، اخ كريم وابن اخ كريم، فقال عليه السلام: اذهبوا فانتم الطلقاء. ثم خطب خطبة ابان فيها كثيراً من الأحكام... ثم قال: يامعشر قريش إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، والناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

**(يـاأيهـا النـاس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير)**.

ثم شرع الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام...

وجـاء رجـل يرتعـد خوفاً فقـال له عليـه السـلام: هون عليـك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امـرأة من قريش كانت تأكـل القـديـد». لقد كان هذا المشهد تلخيصاً يتضمن جوهر الطور المشرق المقبل لجملة المجتمعات الانسانية، كالبذرة تلخص الشجرة الفارعة.

وارسـل عليـه السـلام، اثنـاء اقامته في مكة، السرايا هنا وهناك حولها، تحطم الاصنـام وتقتلع الأوثـان: كالعـزى وسـواع ومناة. وانطوت صفحة الشرك في الجزيرة العربية، بهدم «مجمع آلهته» في مكة.

**فلول الشـرك**: تقـول بعض أخبـار السيرة أنه عندما رأت ثقيف وهوازن النبي تمكن من قريش خشيتـا من توجهـه إليهما، فتجمعتا لمبادأته بالهجوم، إلا أنه توجه هو لتشتيت جمعهـما، فكـانت موقعـة حنـين. ولكن اقـامته عليه السلام بمكة بعد فتحها كانت غير كافيـة لتـدبـير واقـامـة تلك الحشـود المشـركة التي واجهها في هذه الموقعة. والأصح، أن ثقيف وهوازن بدأتا بلاستعداد لمؤازرة قريش من الوقت الذي تبين فيه حتميـة الصـدام بينهـا وبـين المسلمين. إلا أنه عليه السلام لم يترك لهما الوقت الكافي لاتمـام الاستعـداد للتـدخـل، وبـادر إلى ضرب الشـرك في مكـة واقتلاعه قبل التقاء الأعـداء ليضمـوا قواهم بعضهـا إلى بعض لمحـاربتـه. ولم يتـوقف مع ذلـك أولئـك المشـركـون عن سعيهم لاتمـام حشودهم الكبيرة لشن هجوم على المسلمين. ولعلهم كانـوا يطمحـون إلى الحلول مكان قريش في زعامة العرب بعد القضاء على الاسلام في معركة فاصلة. فدريد بن الصمة وصف يوم حنين بأنه*: «يوم كائن له مابعده»،

* انظر الأغاني لابي فرج الاصفهاني ج٩ ص١٤ و ١٥.

وذلك في مجال حديثه مع مالك بن عوف وانتقاده اياه للتدبير الذي اتخذه بوضع الأهل والمال وراء المقاتلين ليقاتل هؤلاء عنهم. كما أن عقلاء القريشيين، من الذين سمح لهم الرسول بالاشتراك في تلك الوقعة وهم مازالوا على شركهم كانوا يخشون انتصار هوازن. منهم صفوان بن امية مثلاً الذي قال لأخيه الشامت بتراجع المسلمين في بدء القتال: «اسكت فض الله فاك، والله لأن يَرُبني رجل من قريش خير من أن يَرُبّني رجل من هوازن». وقال لآخر: «ويلك اتبشر بظهور الأعراب؟».

إن المعركة في وادي حنين لاتنفصل (على عكس ماقد يبدو في الظاهر) عن المعارك الأخرى التي تلتها في اوطاس ونخلة والطائف، فقد كانت هنالك حرب تمتد على منطقة من الجزيرة العربية هي منطقة: مكة ـ الطائف، الجبلية الوعرة الحصينة. وطرفا تلك الحرب كانا: المسلمين من جهة، وسكان تلك المنطقة الصعبة من جهة اخرى. اما موضوع الحرب فهو: مصلحة الدعوة الاسلامية في طرف، ومصلحة فئة مشركة تطمح إلى احتلال مكانة قريش عند العرب في الطرف الآخر. وقد اخذ القتال شكل الصراع على محور مكة ـ الطائف في تلك الكتلة الجبلية الصعبة الشديدة التقلب بأوصافها. ويقع مدخل وادي حنين على بعد يقرب من عشرين ميلاً من مكة على طريق الطائف. ويمتد هنا الوادي على الطريق المذكور مسافة تقرب من ثمانية اميال، باتجاه: جنوب ـ شمال، ثم يتصل عند زيمة بوادي نخلة المتجه باتجاه: غرب ـ شرق، على طريق الطائف الذي يلتف حول تلك الكتلة الجبلية عبر سلسلة من الوديان الوعرة والمعابر والصعود والهبوط. أما الوادي المذكور فهو بعرض ميلين على العموم ويضيق ليصبح اقل من ربع ميل تجاه زيمة (على بعد ميلين منها).

وكان النبي يراقب تحرك المشركين طوال اقامته في مكة. فأرسل إليهم مثلاً عبد الله بن ابي حدرد ليقيم بينهم ويرى استعداداتهم ليخبره بالتالي عنها*. كما أن النبي كان يقصر الصلاة طوال اقامته في مكة، لأنه كان يقدر أنه سيدعى للخروج في أي وقت لملاقاة العدو ومناجزته. وعندما بلغه تمام تجمعهم بقيادة سيد هوازن مالك بن عوف في اوطاس، وهو واد لقبيلة هوازن، يجب أن يكون بناء على أخبار معركة حنين في السيرة النبوية على مسيرة ليلة من زيمة، خرج مسرعاً بجيش تعداده اثنا عشر

---

* ابن هشام ج٢ ص ٤٤٠

الفـاً، عشـرة آلاف مقـاتل اتوا معه من المدينة لفتح مكة والفان من قريش. واتجه إلى وادي حنين واقام مقره العام هناك (من سياق اخبار السيرة نعتقد أن النبي اتخذ مقره العـام في الجعـرانـة، بينـما اتخذ مالك بن عوف مقره في أوطاس). واتخذ عليه السلام ترتيبات المسيرة إلى ساحة المعركة. وعين خالد بن الوليد على مقدمة الجيش المؤلفة من سبعـمائـة مقـاتـل من بني سليم. وكـان النبي عليه السلام في كتيبة غير بعيدة عن المقـدمـة. وسـار جيش المسلمـين في الحـادي عشـر من شوال، قبل الفجر، في وادي حنين، باتجاه زيمة، بهدف الوصول إلى اوطاس.

وكان مالك بن عوف في تلك الليلة المذكورة يُعِدُّ مفاجأة للمسلمين الذين كانوا يظنون، بناء على مالديهم من أخبار، أن مكان اللقاء معه في وادي أوطاس وليس (كما حصل في الواقع) في مضيق وادي حنين. ونعتقد أن مالكاً هذا نجح إلى حد بعيد في تعميـة الأخبـار عن المسلمـين وخداعهم، بأنه سينتظرهم في أوطاس. ونستند في هذا على الأخبار الهامة التالية المؤكدة بالتواتر لدى اصحاب السيرة*:

١ ـ يقول ابو الفرج في الأغاني: «. . . ان الناس وفيهم دريد بن الصمة نزلوا باوطاس، فقال لهم دريد: بأي واد انتم، قالوا: بأوطاس.

قال: وأنعم بمجال الخيل ليس بالحزن الضرس ولا السهل الدهس مالي اسمع رغـاء الأبـل ونهيق الحمـير وبكـاء الصغـير وثغاء الشاء، قالوا ساق مالك بن عوف مع النـاس ابنـاءهم ونساءهم واموالهم. . فلامه قائلاً: هل يرد المنهزم شيء. . . ثم قال ارفعهم إلى أعلى بلادهم وعلياء قومهم ثم الق القوم بالرجال على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد احرزت اهلك ومالك. . . فقـال مالـك: لا والله ماأفعـل ذلـك ابداً أنك قد خرفت وخرف رأيك وعلمك والله لتطيعنني يامعشـر هوازن أولأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من وراء ظهـري. . فقالوا له أطعناك،

فدريـد بن الصمـة يمتـدح وادي أوطاس كميدان جيد للمعركة بهذا المشهد: وأنعم بمجال الخيل ليس بالحزن الضرس ولا السهل الدهس. ذلك لأن القوم ماتوا إلى هذا المكان لاقامة مباريات في سباق الخيل، وإنما للحرب.

* انظر المرجعين السابقين

٢ ـ ان بني هوازن جلبوا عيالهم واموالهم إلى اوطاس، ولم يفعل حلفاؤ هم الثقفيون وغيرهم مثلهم، مع أن الأمر كان لرئيسهم مالك الذي ماكان ليقبل أن تقوم عشيرته وحدها دون حلفائها بهذه المخاطرة، لما لهذا الأمر من تأثير معنوي كبير في نفوس مقاتليها، إذ يشعرون بهذا بالغبن بالنسبة إلى حلفائهم، لولا أن هذا الأمر كان مجرد مظاهرة افتعلها مالك، وقصد بها التعمية على المسلمين فيظنوا بأنه منتظر في اوطاس. ومما يدل على غضب ذويه من انفرادهم وحدهم بجلب الأهل والمال إلى اوطاس (المظنون انها ستكون ميدان المعركة) هو انتقاد دريد بن الصمة له من هذه الناحية مع أنها معروفة عند العرب إذ قد فعلوا ذات الشيء في ذي قار وفي احد، وسيفعلونه في اليرموك واجنادين، عندما كانت نساؤ هم في مؤخراتهم تحضهم على الثبات وتثير فيهم الحماس. وهنالك ايضاً تهديد مالك قومه بالانتحار بقوله: والله لتطيعنني أو لاتكئن على هذا السيف حتى يخرج من وراء ظهري... وهذا اليس لأنه بدر من هوازن انحياز لرأي ابن الصمة بسبب احترامهم له كما يتبين من ظاهر الخبر، بل لأن ابن الصمة هذا ما انتقد مالكاً على جلب الأهل والمال إلى أوطاس (ميدان المعركة المظنون) الاتأثراً بالرأي العام لقبيلته هوازن التي رأت نفسها مغبونة تجاه حلفائها.

٣ ـ مر معنا أن النبي ارسل عبد الله بن ابي حدرد ليقيم في هوازن ويراقب ماتفعل كي يخبره بالتالي. وقد أدى مهمته وعاد واخبر الرسول ﷺ بما شاهد. والخبر الهام كان بطبيعة الحال ذلك المشهد الآنف الذكر الذي جرى في اوطاس بين مالك ودريد والذي رواه الاصفهاني في الأغاني. وقد كذبه عمر بن الخطاب لأنه استنتج أن به شيئا غير صحيح. ومما لاريب فيه أنه عليه السلام كان لديه ذات الانطباع، ولكنه كانسان موضوعي مال إلى مشاهدة العين عن الاستنتاج والانطباع. اضف إلى هذا أن عيونه في هوازن لم تقتصر على واحد فقط هو عبد الله بن ابي حدرد الآنف الذكر، ولا بد من أن يكون هنالك آخرون، اتفقوا معه في اقواله، لأنهم شاهدوا ماشاهده.

لقد كانت التظاهرات والترتيبات التي اعدها مالك في وادي اوطاس لمجرد التعمية، كي يعتقد المسلمون أن المشركين ينتظرونهم في ذلك الوادي ولكن مالكاً بن عوف ترك في تلك الليلة وادي اوطاس، بشكل مفاجيء، وسار مسرعاً بجيشه المؤلف من اثني عشر ألف مقاتل إلى مضيق وادي حنين قرب زيمة، وكمن بهناك: وضع

عشيرته بني هوازن في المقدمة وخلفها بني ثقيف، على عدوتي الوادي حيث اختبأ المقاتلون في الشعاب، وفي الحفر وبين الصخور. وتقدم الجميع نحو فتحة المضيق، من الجهة التي يقبل منها المسلمون، عدد كبير من رماة النبال.

وتقدم جيش النبي نحو المضيق، ودخلت فيه مقدمته في أول ضوء الصباح، فإذا بالنبال تنهال عليها كغيوم الجراد المنتشر. وسقط قائدها خالد بن الوليد وفي جسمه جرح بليغ. فلوى الناس الذين صعقوا بالمفاجأة اعنة خيلهم متراجعين بغير انتظام. واصطدم المنهزمون بمن كان وراءهم من الرتل وبعثوا فيه الفوضى والتراجع. واختلط الحابل بالنابل حتى أن ابا سفيان قال: لاتنتهي هزيمتهم حتى البحر. ولكن البلبلة والفوضى لم تتناول إلا الطلائع وبعض الكتائب التي تليها. وكان من المبالغات قول بعض اخبار السيرة أن بعض المنهزمين وصلوا بهزيمتهم إلى مكة. والخطورة الكبيرة كانت تتركز في أن النبي عليه السلام، كان قد دخل المضيق عند حدوث تلك البلبلة. وكان أن انفضت من حوله الكتيبة التي كان فيها، وقد جرفها تيار التراجع القوي إلى الوراء واصبح معزولاً تجاه الأعداء مع قبضة من الرجال، كان منهم ابوبكر وعمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وغيرهم. ووصلت طلائع المطاردة العدوة قربه واشتبكت مع صحبه. فانحاز عليه السلام إلى نتوء صخري، وامر عمه العباس، وكان جهوري الصوت، ان ينادي: «يامعشر الانصار، يامعشر اصحاب السمرة»، والسمرة هي شجرة الرضوان في الحديبية. فسرى الصوت وتردد على الأفواه وسبق التراجع والتقهقر ووصل إلى الكتائب الخلفية التي لم تدب فيها الفوضى فتقدمت مسرعة إلى مصدر الصوت. حتى المنهزمين ثابوا إلى رشدهم وهدأ روعهم عندما ابتعدوا بعداً كافياً عن مكان الخطر وقابلوا اخوانهم الذين كانوا يتقدمون بقدم ثابتة نحو المضيق. فعاد الناس ادراجهم ملبين: لبيك يارسول الله، لبيك. واخذت المقاومة حول النبي تتعاظم وتتسع، بوصول المزيد من المقاتلين المسلمين، ولم يمض وقت حتى كان حوله الآلاف. وكانت خيالة المسلمين قد عادت إلى التجمع، وتولى قيادتها الزبير بن العوام بدلا من خالد بن الوليد الجريح. واستعاد المسلمون المبادهة فانقضت خيالة الزبير على المضيق، وتبعتها بقية المقاتلة بالسيوف الذين ماكان يجاريهم احد في ذلك العصر بالمهارة في استعمالها. فانقلب الوضع وفوجيء المفاجيء، فقرر مالك الانسحاب من المضيق بهوازن التي انهكتها

واثخنت فيها سيوف المسلمين ورماحهم. فطلب من ثقيف أن تحمي مؤخراته في انسحابه. ولكن المسلمين انقضوا على الثقفيين وزحزحوهم من مواقعهم واخرجوهم من المضيق. وانفض جمع المشركين الذي انقسموا إلى ثلاثة اقسام: قسم ذهب إلى اوطاس، وقسم آخر إلى نخلة، وعادت ثقيف إلى الطائف ومعها مالك بن عوف*

وقد تبعت خيل النبي بقيادة الزبير بن العوام الذين ذهبوا إلى نخلة وقتلوا بعضهم وشتتوا الباقي وكان بين قتلاهم دريد بن الصمة*

أما جماعة اوطاس فقد لحق بهم المسلمون بقيادة ابي عامر الاشعري ومعه ابن اخيه ابو موسى الاشعري فبددوا شملهم واستولوا على ماجمعته هناك هوازن من عيال ومال. وقد جمع عليه السلام مجمل ماحصل عليه المسلمون من غنائم في هذه المعركة في الجعرانة، حيث قسمها هناك حسبما جاء في كتب السيرة بعد أن تقدم هو بنفسه لملاحقة القسم الثالث من المشركين الذي ولوا الأدبار إلى الطائف، وعودته من هذه الغزوة.

سار عليه السلام إلى الطائف، وعلى مقدمته خالد بن الوليد، وضرب عليها الحصار مدة ثمانية عشر يوماً. ورأى أن لايطيل الحصار أكثر من ذلك، بعد أن كبد المشركين تلك الهزيمة الحاسمة في حنين، فاصبحت الطائف كما وصفها له نوفل بن معاوية الديلي عندما استشاره في امرها فقال: «يارسول الله، ثعلب في جحر إن اقمت اخذته وإن تركته لم يضرك «فأمر برفع الحصار والعودة إلى مقره في الجعرانة، حيث قسم الغنائم كما قلنا، وبقي فيها ثلاثة عشرة ليلة، اعتمر خلالها وطاف بالكعبة. كما استقبل فيها وفداً من هوازن اتى إليه برآسة زهير بن صرد طائعاً مسلماً، فرد عليهم نساءهم وأولادهم دون المال. وقال للوفد ان يخبر مالكاً بن عوف: «إن جاءني مسلماً رددت عليه اهله وماله واعطيته مائة من الأبل «فلم يتأخر مالك أن اتى النبي في الجعرانة تائباً مسلماً، فاستعمله عليه السلام على من اسلم من هوازن. ثم عاد ﷺ إلى المدينة وقد قضى على الشرك وفلوله.

كانت معركة حنين نموذجاً رائعاً للصبر والثبات في لحظات الشدة، ولسرعة

---

* الأغاني الآنف الذكر.
* الأغاني الآنف الذكر.

استعادة رباطة الجأش بعد المفاجأة، وللتغلب على عدو يتمتع بمواقع حصينة وقلبه إلى مفاجَأ بعد ان كان مفاجئاً. وكان ذلك نتيجة تربية دامت اكثر من عشرين عاماً لعدد من الاجيال في المدرسة العظيمة: مدرسة الاسلام المجاهد بكل صور الجهاد وانواعه التي كان من ابرزها الكفاح المسلح. أما ثبات النبي وصفاء ذهنه، وردود افعاله الصحيحة، في احلك لحظات الشدة واخطرها، فأمور لاحاجة بنا للكلام عنها، فهي صفاته المعروفة في كل المواقف طوال حياته عليه السلام. وكانت خطة مالك بن عوف تطابق في جوهرها الخطة التي وضعها هاني بعل واوقع بها جيش القنصل الروماني فلامنيوس نيبوس (Flaminius NePos) على بحيرة تراسيمين (Trasemene) واباده على بكرة ابيه بمذبحة رهيبة.

في تلك المعركة تمكن القائد القرطاجني من جر جيش عدوه إلى مأزق يتشكل من سهل ضيق محصور بين البحيرةالمذكورة وبين سلسلة مرتفعات وعرة تشكل هلالاً حوله يقترب رأساه من مياه البحيرة. وقد كمن جيش هاني بعل في تلك المرتفعات، وترك الجيش الروماني يدخل ذلك السهل، ثم اغلق عليه مدخله ومخرجه من رأسي الهلال المذكور، وقام بإبادته.

اما في حنين فإن ترتيب مسيرة النبي اجبر المشركين الكامنين في الوادي على الظهور برمي نبالهم على طلائع المسلمين: برأينا ان المسافات بين الكتائب في رتل المسلمين كانت لاتسمح بانتظارهم جميعاً ليسقطوا في المضيق الذي كمن فيه عدوهم. كادت تصل مثلاً الطلائع إلى نهاية المضيق، ولم يدخل في أوله إلا جزء صغير من الرتل، في الوقت الذي بقي فيه معظم الرتل في الوادي قبل مدخل المضيق المأزق. وهذا مااضطر الرماة إلى اطلاق سهامهم والخروج من مخابئهم. أما الفوضى فإنها كما اشرنا إليه اعلاه لم تحصل إلا في طلائع جيش المسلمين، أي في المضيق وقبله حول مدخله، ولم تدم إلا مدة قصيرة عاد بعدها النظام والانضباط في صف المسلمين.

لقد كان هنالك بعض التقصير ماكان ينبغي أن يحدث. كان على الطليعة مثلاً ان لاتدخل المأزق قبل استطلاعه والتأكد من سلامة المرور فيه. ومع ذلك فقد كانت حنين من اعظم مواقف الجهاد الظافر للمسلمين:

**﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ اعجبتكم**

كثـرتكم فلم تغن عنكم شيئـاً وضـاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبـرين. ثم انـزل الله سكينتـه على رسـوله وعلى المؤمنـين وانـزل جنـوداً لم تروهـا وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾.

(التوبة من ٢٥ ـ ٢٧)

**الصـدام مع نصـرانية الروم**: قلنا ان الثورة الاسلامية ماكانت موجهة اساسياً ضد وثنية الجزيرة العربية، وضد التوحيد المنحرف لخدمة الشرك في هذه الجزيرة، إلا بقصـد اقـامـة قاعـدة انطـلاق إلى العـالم لهدم العبـوديـة وازالـة طورهـا، ودفع جملة المجتمعات الانسانية إلى الطور الأعلى: طور الحرفة والتجارة العالمية النشطة. فشرك الجـاهليـة والتـوحيـد المنحـرف فيها عقبتان دون ذلك الهدف الأساسي. فهو كما قلنا واشـرنـا إليـه اكثـر من مرة: اقـامـة دار الاسـلام، العقـد الوسيط لجملة المجتمعات الانسـانيـة في طورهـا الجـديـد، هذا الطـور الذي تقدمت فيه الانسانية لأول مرة في التـاريـخ لتضمهـا جملة مجتمعـات واحـدة تضم حوضات المدنيات الثلاث في مناطق البحر الأبيض والهند والصين.

إن اعداء الاسلام من العرب في عصر الدعوة كانوا يسخرون منها عندما كانت تقـول انهـا ستتسـع وستقوض نظامي قيصر وكسرى في العالم، وستقيم مكانهما نظامها الانساني المتقدم. أما عدو الاسلام الأخطر، أما الجهل في كل العصور التي تلت دعوة الاسـلام (الجهـل الـذي يستمد منه المشركون الجدد على اختلاف اشكالهم ونحلهم حججهم وحيلهم «لتطبيـع» امتنـاع على قهـر المستعمرين والصهاينة) نقول أما الجهل فإنه يطمر الدعوة بغيبيات لاتؤدي إلا إلى اعطاء صورة وكأن الاسلام فيها ماتى إلا بهدف تحطيم واقتـلاع اصنـام واوثـان قريش وبقيـة العـرب، وليس بهدف تقـويض النظـام العبـودي العـالمي الذي كان مرتكزاً على الدعامتين الاساسيتين: امبراطوريتي الروم والفـرس فهم كما نرى يلتقـون بجهلهم مع اولئـك السـاخـرين من مشركي ومنافقي العرب الذين كانوا يحاولون اعطاء صورة للدعوة وكأنها غير جديرة بتلك المهمة العالمية.

لقد كان اذن الهدف الاساسي للثورة الاسلامية: نصرانية اباطرة الروم وزردشتية اكاسرة الفرس، المنحرفتين عن الجوهر الأصلي الذي اتى تحت هذين الاسمين لخلاص الانسان من العبودية والقهر. لذلك كان لابد للدعوة من أن تصل في النتيجة إلى الاصطدام مع هذين النظامين.

وقد اتى وقت البدء بهذا الصدام بعد سقوط مجمع الشرك في مكة وما جاورها، وبعد سقوط انحراف التوحيد بخروج اليهود من الحجاز. وكان للنصرانية الرومية بعض التفرعات في الجزيرة العربية، على الأخص في مشارف الشام. كانت هناك بعض القبائل العربية النصرانية التي كانت تدين بالولاء للغساسنة، حرس حدود الامبراطورية الرومية المطلة على الصحراء الشامية. وقد اصطدمت بهم الدعوة قبل فتح مكة، وذكرنا فيما سبق من البحث الغزوات والسرايا الموجهة إلى بعض تلك القبائل العربية النصرانية التي اعترضت الدعوة، مثل غزوة دومة الجندل وسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ايضاً وسرية عمروا بن العاص إلى ذات السلاسل. بل ان الدعوة اصطدمت بنصارى عرب خارج حدود الجزيرة العربية، في بلاد الشام على خط دفاع الامبراطورية الرومية في مؤتة، وقد مر معنا هذا آنفاً.

إن سقوط الشرك بفتح مكة كان له الصدى المنتظر في النظام العبودي المذكور. فعند عودة النبي إلى المدينة من تلك العمليات الظافرة، بلغه أن الروم يحركون عملاءهم من العرب على حدود الامبرطورية لضرب هذه القوة الناشئة «الغريبة» عن النظام المعتاد... وكانت تلك السنة سنة عجفاء، وكان الحر شديداً (رجب من السنة التاسعة) ولكن النبي امر مع ذلك اهل المدينة والاعراب حولها بالتجهز للمسير، كما بعث إلى مكة يأمرهم بالشيء ذاته، وكان الهدف تشتيت تلك التجمعات قبل تمامها وتوجهها إلى الحجاز. وطلب عليه السلام إلى كل من يستطيع، وخاصة منهم الاغنياء من الناس، ان يبذلوا كل عون مستطاع لتجهيز تلك الحملة الصعبة التي دعيت فيما بعد: «غزوة العسرة»، لما كان الناس يرزحون تحته من محل السنة وحر الزمان الشديد. لقد كانت أول تعبئة عامة في الاسلام بكل مافي هذه الكلمة من معنى «وقد انفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، واعطى ثلاثمائة بعير باحلاسها واقتابها، وخمسين فرساً، فقال ﷺ: اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنه. وجاء ابوبكر بكل ماله (وهو اربعة آلاف درهم)، فقال ﷺ: هل ابقيت لاهلك

شيئاً. فقال ابقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة اوقية، وجاء العباس وطلحة بمال كثير، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر، وارسلت النساء حليهن. وجاءه ﷺ سبعة انفس من فقهاء الصحابة يطلبون إليه ان يحملهم، فقال لا اجد ما احملكم عليه، فتولوا واعينهم تفيض من الدمع حزناً ان لا يجدوا ماينفقون. فجهز عثمان ثلاثة منهم، وجهز العباس اثنين، وجهز يامين بن عمرو اثنين. ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون الفاً*. وكان الزبير بن العوام يحمل راية المهاجرين، واسيد بن حضير راية الاوس، والحباب بن المنذر راية الخزرج، وكان على حرس الجيش عباد بن بشر. وامر عليه السلام ابا بكر ان يصلي بالجيش.

وصل جيش النبي إلى تبوك بعد مسيرة عشرين يوماً. وتقول بعض اخبار السيرة انه لم يجد هناك «جيشاً كما كان قد سمع فاقام هناك شهراً ثم عاد إلى المدينة، أي كأن ماأخبر به في المدينة عن تجمع عملاء الروم لغزوه كان غير صحيح، بحسب الأخبار المذكورة، أو مبالغاً فيه. وتقول بعض الأخبار الأخرى: «أنه لم يجد هناك مابلغه من جموع حيث كانوا تفرقوا حينما بلغهم سيره» ونحن نرى: ان مابلغه عليه السلام من تجمع لأولئك العملاء كان صحيحاً، ولكن ليس في تبوك (التي تبعد كثيراً في الصحراء العربية عن قواعدهم في الأردن وسط المنطقة الدفاعية عن حدود الامبراطورية الرومية) وانما في هذه المنطقة الدفاعية: في بصرى والكرك. وان تلك الجموع عندما علمت بقدوم النبي على رأس تلك القوة الكبيرة غيرت خطتها: من الهجوم على يثرب إلى القيام في وضع الدفاع على حدود الامبراطورية في المنطقة المذكورة، وانتظار الجيش الاسلامي مثلاً امام الكرك في المشيرفة، كما فعلت في المرة السابقة عندما لاقت المسلمين في موقعة مؤتة التي مرت معنا فيما سبق من البحث. وفي هذا الوضع يتمكن العدو من تلقي الامدادات السريعة من الشام وعند اللزوم من الاناضول (من قيصر بالذات) إذا وجد نفسه (كقوة حدود) ضعيفاً امام المسلمين. ورأينا هنا يستند على مايلي:

أولاً ـ ليس هنالك من معنى لمجيء جموع عملاء الروم الى تبوك والانتظار

---

* نور اليقين للخضري ص ٢٧٠.

فيها، فيما لو كان قصدهم الهجوم على يثرب، فضلاً عن بعدها الكبير عن قواعدهم. كما انه ليس هنالك مايشير إلى مسيرة للعدو نحو يثرب، ثم إلى عودته من تبوك بناء على خبر بلغه عن تقدم قوة اسلامية كبيرة نحوه.

الثاني ـ استشار ﷺ صحابته في تبوك قبل أن يأمر بالتقدم نحو الشام. فقال له عمر بن الخطاب: «إن كنت أمرت بالمسير فسر. فقال عليه السلام: لو كنت أمرت بالسير لم استشر. فقال: يارسول الله، للروم جموع كثيرة، وليس بالشام احد من اهل الاسلام، وقد دنونا وقد افزعهم دنوك، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله امراً. فتبع عليه السلام مشورته وامر بالقفول إلى المدينة». *

وجاءت النبي اثناء اقامته في تبوك وفود تمثل نصارى العرب في جنوبي الأردن. جاءه يوحنا صاحب ايلة ومعه اهل جرباء واذرح وميناء. فصالحهم على اعطاء الجزية واعطاهم كتباً بذلك، نذكر منها كتاب صاحب ايلة كنموذج لها فيما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا واهل ايلة: سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام واهل اليمن واهل البحر، فمن احدث منهم حدثاً فإنه لايحرز ماله دون نفسه وإنه لطيبة لمن اخذه من الناس وانه لايحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر»**

إن هذه العهود التي ابرمها عليه السلام مع اهل تلك المنطقة من الديار الشامية جعلت هذه المنطقة تحت حماية المسلمين وفصلتها عن الروم من الناحية العملية. وكان هذا الأمر بلا شك بسبب ماشاهده أولئك الناس من قوة للاسلام تفوق القوى القائمة إلى جوارهم لحماية الامبراطورية الرومية. وفي هذا مغزى كبير من الناحية السياسية، إذ استطاع الاسلام بتلك التظاهرة أن يكسر هيبة الروم أمام عرب الشام.

وهذا ماينسجم مع قول عمر بن الخطاب الآنف الذكر من أن: دنوه عليه السلام من حدود الروم بتلك القوة قد افزعهم. ولعل ابن الخطاب رضي الله عنه كان في هذا القول يستند إلى هذا الأمر الى جانب امور اخرى سمعها وشاهدها.

في هذه الغزوة نجد أن الجهاد، بالمال وبالنفس، يبرز كأعلى مظهر من مظاهر

---

* المرجع السابق ص ٢٧٣.

** المرجع السابق.

الايمان في كل وقت. وهو يصل في ظروف تعرض الأمة للخطر (كما هو حالنا اليوم مع العدو الأميركي ـ الصهيوني الذي يهددنا بالابادة، ويحاصرنا باسرائيل وقوة الانتشار السريع وبالعملاء من كل نوع) إلى أن يكون المظهر الوحيد للايمان فلا تغني عنه بقية الفروض. وخبر المخلفين الثلاثة الشهير الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، والذي نجده في كتب الحديث والسيرة، يعطينا مثالاً لرجال لايشك في قوة ايمانهم، ومع ذلك فإنهم كادوا ان يضيعوا بسبب تخلفهم عن السير في غزوة العسرة:

**﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لاملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾**

(التوبة ١١٨)

وكان من مظاهر النفاق والكفر القعود في تلك الساعات الحرجة

**﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم﴾**

(التوبة ٩٠)

**﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله وقالوا لاتنفروا في الحر قل نار جهنم اشد حراً لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون.﴾**

(التوبة ٨١ و ٨٢)

ونجد من جهة ثانية أن الاقبال على التضحية بالنفس وبالمال، في تلك الأوقات العسيرة، وفي ذلك الحر البالغ الشدة، كان لامثيل له. حتى الفقراء كانوا يأتون بالقليل الذي يملكون ليتبرعوا به عله يساعد في تجهيز المسيرة:

**﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم.﴾**

(التوبة ٧٩)

وروى البخارى عن ابن مسعود قال*: «لما امرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء ابو عقيل بنصف صاع وجاء انسان آخر بأكثر منه فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رئاءء فنزلت الآية (والذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين..).

كل هذا يعطينا صورة رائعة لذلك المجتمع المؤمن المتماسك كالصخر، المجتمع الذي يتسابق فيه الجميع لتلبية داعي الجهاد: بالمال وبالنفس، كل بحسب طاقته. كما نجد إلى جانب المؤمنين (مثلما نجد في ايامنا هذه) المثبطين المتقاعسين.. من لايجد الـ ٩٩٪ من الحل إلا عند العدو، ويعبر عن هذا بمختلف الأشكال التي تتراوح بين الشكل الساداتي إلى... الشكل الذي يجعل اميركا غير اسرائيل.. وهنالك ايضاً الأشكال الخادعة.

**الجزيرة العربية تدين بالاسلام**: تكاثف قدوم الوفود العربية من مختلف اطراف الجزيرة، في السنتين التاسعة والعاشرة، إلى يثرب لمبايعة النبي والدخول في الاسلام. وقد رأينا فيما سبق مابلغه الاسلام من قوة وتنظيم حتى امتد ليبسط حمايته على مناطق كانت تدين بالولاء للروم. وهذا امر ماكان احد في الجزيرة العربية ليحلم بوقوعه قبل الدعوة. ومما لاريب فيه أن العربي في تلك الأيام رأى البون الشاسع بين هذه القوة الحرة التي برزت في جزيرته، القوة التي لاتتردد في مجابهة اقوى قوتين عالميتين في تلك الأيام، وبين أولئك الذين وضعوا انفسهم حرساً على حدودهما في الشام والعراق (حرساً لمصالحهما في الجزيرة العربية موزع خطوط التجارة العالمية): المناذرة والغساسنة. واستفاق العربي بهذه الدعوة التي لاتجعل فقط من جزيرته نداً لقوى عالمية كبرى، وإنما أيضاً رفعتها للتجاوز بزمانها زمان هذه القوى، بما قام فيها من نظرة جديدة متفوقة إلى الانسان والعالم.

كان العربي يرى أنه قد تحرر من شبكة نظام عالمي (جاهلي) طالما بعث التقزز والحقد في نفوس الناس دون أن يجدوا طريقاً للخلاص منه حتى اتت الدعوة الاسلامية. كان العربي باختصار يرى أمراً جديداً قد غير جزيرته إلى الأفضل،

---

* التاج ج٤ ص ٣٩٢ و ٣٩٣.

ويبشر بتغير مماثل في كل العالم. فلا عجب اذن، ان يهرع الناس افواجاً في هذه الجزيرة إلى النبي، والحماس يفيض في نفوسهم والايمان يملأ قلوبهم، ليبايعوه على الجهاد للتغيير إلى الأفضل.

وما كان هذا الذي ظهر في الجزيرة ليرضي رؤ ساء الحرس (على شكل ملوك وامراء) على تخوم الامبراطورية*. لقد كانت ردود افعالهم تتسم بالحقد الأعمى على الاسلام. فرأينا مثلاً كيف أن احدهم، وهو الشقي شرحبيل بن عمرو الغساني، قتل الحارث بن عمير الأزدي لمجرد كونه حاملاً كتاب النبي عليه السلام إلى امير بصرى، الأمر المنافي للشهامة والعرف، فضلاً عن ان الانسانية كانت قد حرمته منذ زمن طويل قبل ذلك. وكلنا نعرف قصة ارتداد جبلة بن الأيهم، وكيف فضل «تاجاً» تحت اقدام قيصر، على أن يتساوى مع عربي من جنسه، وكأن من متممات الملك امتهان الانسان وصفعه. لقد كان صدر جبلة (وامثاله في كل عصر) اضيق من أن يتسع لسماحة الاسلام ورحمته وعظمته الحقيقية في وضع الأخوة الانسانية موضع التطبيق العملي على أوسع نطاق. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتواضعه هو «المسيحي» الحقيقي، وليس جبلة بن الأيهم الذي لم يحفظ دروس السيد المسيح في التواضع والاقتراب من الناس ومخالطتهم ومؤاخاتهم، وليس في الانفصال عنهم والتأله عليهم. ومع ذلك فإنه ماكان اكثر من دمية (كامثاله في ايامنا هذه) في ذلك النظام العبودي العالمي. أما الانسان العربي الذي صفعه وهو يطوف في الكعبة فقد كان انساناً حراً يسير تحت رايات الاسلام لتحرير الانسان من العبودية، وعلى الأخص منه، الانسان العربي الغساني.

وكان من الطبيعي ان يكون للعملية العظيمة التي انجزها النبي عليه السلام، ككل عمليات الانشاء الكبرى، نفاياتها الكثيرة الخارجة على النظام (عن البناء المنجز)، بشكل أو بآخر. ان يبقى بعض الكفر هنا وهناك،بعض الانتهاز والوصولية، بعض الاطماع، بعض السخفاء الدجالين الذين يتوهمون ان باستطاعتهم الصعود إلى «النبوة بتسلق طريق هين مختصر معزول عن مجرى احداث التاريخ ويقوم على

---

*** قلنا اعلاه اننا سنتناول نظام الحراسة على حدود امبراطوريتي الروم والفرس بشيء من الشرح فيما يلي من البحث. فنحن هنا نقرر واقع الغساسنة ولانقصد التشنيع عليهم.**

الدجل والابتزاز. فمسيلمة الكذاب مثلاً طلب ان يكون له «الأمر» من بعد النبي، أو ان يقتسم معه «النبوة»... ان تكون نتيجة جهاده المرير ﷺ، لامن اجل الانسان وخلاصه، وانما من اجل ذلك التافه الكذاب...

لقد ازعج هؤلاء الأدعياء الاسلام بعض الوقت، إلا انهم انتهوا باهون مما انتهى إليه غيرهم من عتاة الشرك والانحراف.

وقام عليه السلام في السنة العاشرة، بآخر حجة له، وسار معه في هذه الحجة جمع عظيم من المسلمين يبلغ التسعين الفا. وفي التاسع من ذي الحجة توجه إلى عرفة، وخطب هناك في الناس خطبته التي ودع بها المسلمين بعد أن ادى رسالته العظيمة. قال ﷺ في هذه الخطبة:

**﴿... ايها الناس، انما المؤمنون اخوة ولايحل لامرىء مال اخيه إلا عن طيب نفس منه، الا هل بلغت. اللهم اشهد. فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما ان اخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. ايها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. اكرمكم عند الله اتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت. اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب﴾**

وفي هذا اليوم نزلت الآية الكريمة:

**﴿اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً..﴾**

(المائدة ٣)